الإسلام

فطرة الخلق وشريعة الوجود

تأليف
ناهد عبد العال الخراشي

الطبعة الأولى
رمضان ١٤٠٨هـ   ابريل ١٩٨٨م

التوزيع فى الداخل والخارج
وكالة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء ـــ القاهرة
ت: ٧٥٨٢٠٣ ـــ تلكس ٩٢٠٠١ يو ان



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(المائدة: ٣)

إهـــداء

إلى من أرشدنى إلى طريق العلم والايمان
إلى من زرع فى نفسى بذور الحب والأمان
إلى من نمىّ فى كيانى حب البحث والاطلاع
إلى من علمنى وقادنى إلى سـبيل المعرفـة
إلى من شجعنى ووجهنى إلى رسالتى فى الحياة
إلى مثلى الأعلى ، ونموذجى الأفضل
إلى ضياء قلبى ، وشـمس حيـاتى
إلى روح أبى الطاهرة أهدى هذا الكتاب ...
حبا له .. واعترافا بجميله .. ووفاءا لذكراه ..

لمســة وفـــاء

إلى أخى وشقيقى الذى شجعنى للبحث فى هذا الموضوع وقدم لى كل مساعدة ومساندة لإخراج هذا العمل إلى النور . فله منى كل التقدير والثناء.. وكل الحب والولاء .. وكل الامتنان والوفاء..داعية الله عز وجل له بالتوفيق والسداد.

شـــكر وتقديـــر

كلمة شكر وتقدير واحترام أقدمها إلى :

جمعية الرعاية الاسلامية بالكويت التى طرحت موضوع هذا الكتاب فى مسابقة عامة بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الاسلامى الخامس على أرض الكويت .

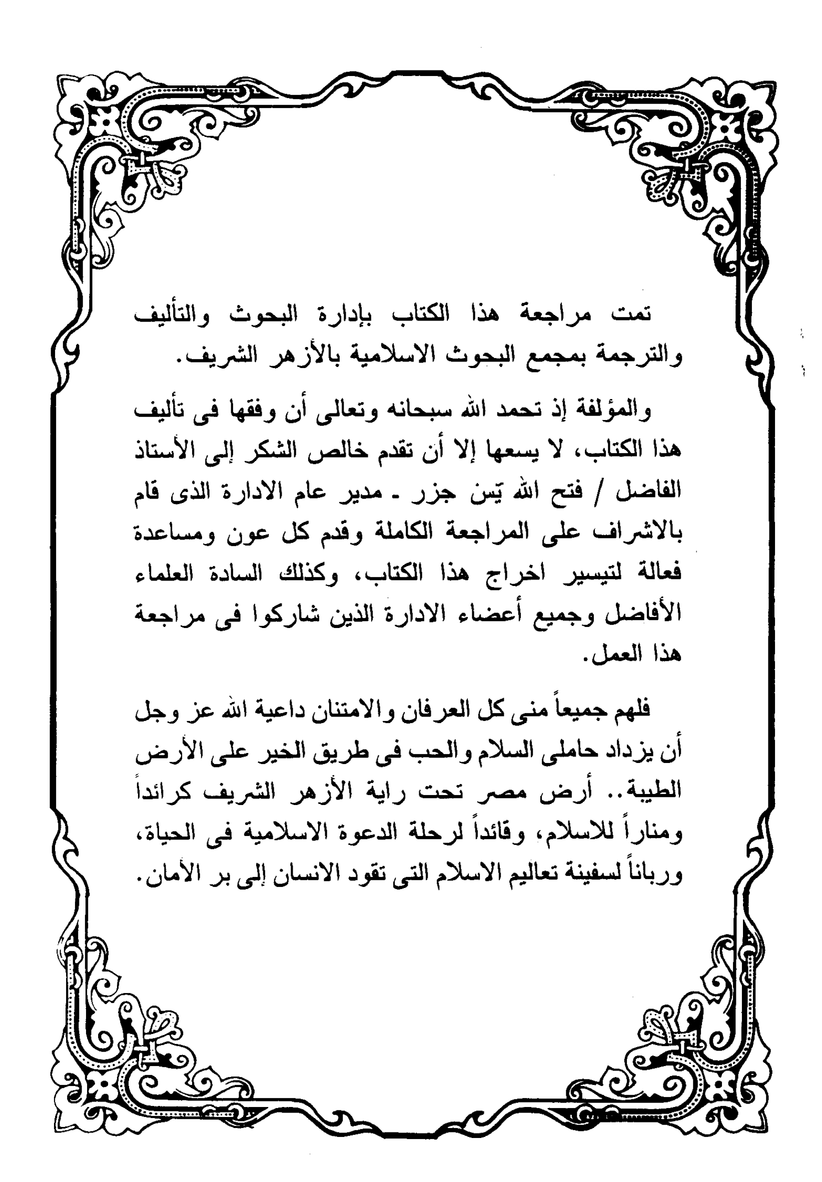
تحية خالصة لهذه الجمعية التى فتحت المجال لى ولغيرى من المسلمين والمسلمات لكى نجتهد للبحث فى هذا الموضوع خاصة فى تلك الآونة التى نحتاج فيها إلى اهتداء المسلمين والمسلمات إلى الفطرة الربانية .. فطرة الله التى فطر الناس عليها .

فلهم منى كل الشكر والعرفان داعية الله عز وجل أن يكتب لى ولهم وللمسلمين والمسلمات الصلاح والاصلاح ، وأن يهدنا جميعا إلى طريق النور .. طريق الخير .. طريق الاسلام .. طريق الإيمان .

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى نادى الأهرام للكتاب ومطابع الأهرام التجارية لما لمسته من تعاون ومساندة فعالة، وإلى كل من عاون على إخراج هذا الكتاب إلى النور.

تحية وتقديراً إلى القارىء العزيز لإهتمامه بموضوع الكتاب..

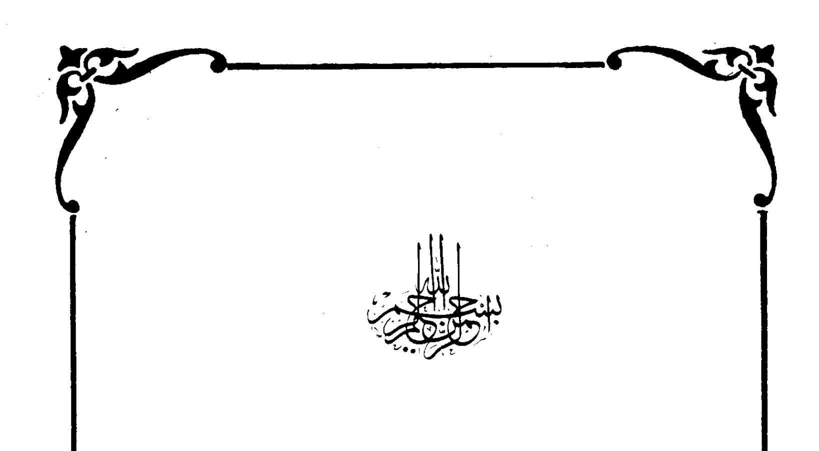
نفعنى الله واياه بما وهبه الله لنا من علوم الاسلام.



تمت مراجعة هذا الكتاب بإدارة البحوث والتأليف والترجمة بمجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف.

والمؤلفة إذ تحمد الله سبحانه وتعالى أن وفقها فى تأليف هذا الكتاب، لا يسعها إلا أن تقدم خالص الشكر إلى الأستاذ الفاضل / فتح الله يّسن جزر - مدير عام الادارة الذى قام بالاشراف على المراجعة الكاملة وقدم كل عون ومساعدة فعالة لتيسير اخراج هذا الكتاب، وكذلك السادة العلماء الأفاضل وجميع أعضاء الادارة الذين شاركوا فى مراجعة هذا العمل.

فلهم جميعاً منى كل العرفان والامتنان داعية الله عز وجل أن يزداد حاملى السلام والحب فى طريق الخير على الأرض الطيبة.. أرض مصر تحت راية الأزهر الشريف كرائداً ومناراً للاسلام، وقائداً لرحلة الدعوة الاسلامية فى الحياة، ورباناً لسفينة تعاليم الاسلام التى تقود الانسان إلى بر الأمان.



تتجلى عظمة الله فى خلق الخلق ..
والوجود كله .. بدايته ونهايته .. ما نعرفه منه وما لا نعرفه ..
شاهد على عظمة الله .. وقدرة الله .. ووحدانية الله .

ولقد خلق الله تبارك وتعالى الكون كله على الفطرة .. ومنح الله تبارك وتعالى جميع الموجودات نعمة الهداية إلى الفطرة .. وشرع الله تبارك وتعالى للوجود كله شريعة حاكمة يسير على نهجها .. شريعة تنبع من الفطرة ..

والفطرة التى فطر الله الخلق عليها هى فطرة الاسلام والشريعة التى شرعها سبحانه للوجود كله هى شريعة الاسلام فالاسلام هو فطرة الخلق .. وشريعة الوجود .

مقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . منه الفضل وله الحمد . والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله .. أشرف المرسلين وخاتم النبيين ، والسلام على من اتبع الهدى وبعد ...

تمنح الأقدار اذنا للانسان أن يبذل الجهد ، والله تعالى هو الذى يعطى الثمرة .

فالحمد لله حمدا ينبغى لجلال وجهه ويليق بعظيم سلطانه ..
ربنا لا نحصى ثناءا عليك ..
أنت سبحانك كما أثنيت على نفسك ..

***

(ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً).
كما جعل الله الانسان خليفة له فى الأرض..

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (1)

وسخر له مافى السموات ومافى الأرض .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (2)

(1) البقرة: ٣٠ (2) لقمان: ٢٠

اختار له الاسلام دينا قيما .

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (١)

ولن يقبل دينا سواه .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٢)

وشرع له من الاسلام شريعة يتبعها .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ (٣)

إذن الدين الذى اصطفاه الله لنفسه وارتضاه لعباده هو الاسلام .. والاسلام ليس دينا من أديان يختار الانسان من بينها واحدا .. وإنما هو الدين الواحد الذى يرضاه الله للناس ، ويرضاه من الناس ولا يرضى لهم غيره .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (٤)

والدين الاسلامى يقوم على ركيزة أولية ودعامة أساسية .. هى التوحيد ، والتوحيد هو الحقيقة الأساسية فى العقيدة الاسلامية بل أنه الخاصية البارزة فى كل دين ، كما أنه كان المقوم الأول فى دين الله كله .. وإن الاسلام ــ على إطلاقه ــ هو الدين الذى جاء به كل رسول وبما أن الدين هو إسلام الوجه لله وحده ، واتباع منهج الله وحده فى كل شئون الحياة ، والتلقى من الله وحده فى هذه الشئون كلها ، والعبودية لله وحده بطاعة منهجه وشريعته ونظامه ، والعبادة لله وحده سواء فى الشعائر التعبدية أو فى نظام الحياة الواقعية .. فإن التحريفات والانحرافات التى وقعت فى تصورات اتباع الرسل ، إلى جانب طغيان الجاهليات على الديانات ، لم تبق فى الأرض كلها من تصور دينى

(١) آل عمران: ١٩
(٢) آل عمران: ٨٥
(٣) الجاثية: ١٨
(٤) البقرة: ١٣٢

صحيح إلا التصور الذى جاء به محمد ﷺ وحفظ الله أصوله ، فلم تمتد إليها يد التحريف ، ولم تطمسها الجاهليات التى طغت على حياة الناس .. ومن ثم أصبح التوحيد خاصية من خصائص هذا الدين .

وفى الحقيقة إن التوحيد خاصية شملت جوانب كثيرة منها :

تصور المسلم للكون كله ، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فيه ، وتصوره لحقيقة القوة الفاعلة فى حياته بحذافيرها . كما امتدت إلى تنظيم جوانب الحياة الانسانية كلها : خافيها وظاهرها ، صغيرها وكبيرها . حقيرها وجليلها ، شعائرها وشرائعها ، اعتقاديها وعمليها ، فرديها وجماعيها ، دنيويها وأخرويها .. بحيث لاتفلت ذرة واحدة منها من عقيدة التوحيد الشاملة .[٢]

والانسان فى ظل هذه العقيدة وتحت راية هذه الحقيقة يعيش روعة الابداع الإلهى الذى يحيا فى نفسه ويتفاعل مع كيانه فيهز وجدانه ويحرك قلبه ولسانه بقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(آل عمران : ١٩١)

جل جلالك ، وعظمت قدرتك ، وتقدست ذاتك .

فالله وحده هو الذى يتقرب إليه المسلم بعبادته وخضوعه ، ومن الله وحده يستمد المسلم العون ويطلب الهداية .

ولذلك فإن التوحيد من أول الأركان الأساسية الخمسة التى بنى عليها الاسلام فلكى يتحقق إسلام الانسان لابد من شهادته بأن لا إله إلا الله محمد رسول الله ثم أداء جميع الأركان الأخرى وهى إقامة الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

سيد قطب: خصائص التصور الاسلامى ومقوماته، ص ١٨٢

إن أساس العقيدة الاسلامية هو التوحيد لله الواحد القهار فهو الإله الواحد الصمد الخالق لكل شيء والمدبر لكل شيء والمهيمن على كل شيء ..وهو المعين ، وهو المستعان به .

هذا هو المعنى الذى يعنيه ، أو الذى يجب أن يعنيه المسلم كلما قرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1]

وعلى هذا الأساس المتين الواضح من صراحة التوحيد وخلوصه من شوائب الشرك ، تقوم صلة المسلم بربه فى الاسلام ، وعلى هذا الأساس نفسه — فيمايقرر الاسلام — قامت دعوة الديانات السماوية قبله وإليه دعا جميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أممهم منذ أن كانت الرسالة والنبوة .

والاسلام هو دين الله الذى اختاره للخلق اجمعين منذ عهد آدم إلى عهد محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام.

والقرآن الكريم حريص جدا على أن يذكر المسلمين دائما بأن ماشرعه الله تعالى لهم من الدين قد شرعه ، منذ الأزمنة البعيدة للأمم السابقة .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[2]

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[3]

---

(١) الفاتحة: ٥

(٢) الشورى: ١٣

(٣) الأنعام: ١٤

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (١)

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢)

والاسلام هو دين الفطرة .. فطرة الله التى فطر الناس عليها ... فطرة التوحيد له عز وجل ، وفطرة اسلام الوجه والقلب والكيان كله له سبحانه وتعالى خالق الكون والناس أجمعين .. رب العالمين .

قال تعالى:

﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾

(الروم: ٣٠)

فالحمد لله الذى هدانا لهذا الدين القيّم ، وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

---

(١) الزمر: ٦٦

(٢) البقرة: ١٣٠ — ١٣٣

والحمد لله الذى منّ علينا بما شرع من دين الاسلام الحنيف وارتضاه لنا بما يوجهنا إلى جميع نواحى الخير فى الحياة وبما رسم سبحانه لنا به طريق السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة .

فالحمد لله حمدا كبيرا ، والشكر لله شكرا كثيرا أن هدانا للاسلام وأصبحنا على عقيدة التوحيد فاهتدينا إلى الفطرة الربانية سالكين الشريعة الإلهية .. فهذه فطرة الله التى فطر الناس عليها ولاتبديل لخلق الله والحمد لله رب العالمين .

خلق الله عز وجل الكون كله على الفطرة .

وسبحانه شرع للوجود كله شريعة يسير على نهجها .

فالفطرة التى فطر الله الخلق عليها هى فطـرة الاسلام

والشريعة التى شرعها سبحانه للوجود كله هى شريعة الاسلام

وهذا هو موضوع الكتاب « الاسلام فطرة الخلق وشريعة الوجود » وهو موضوع الحديث فيه مفتوح ، والمجال فيه واسع ولايمكن أن يحتويه هذا القدر القليل من السطور ولا أن يشمله هذا الحيز الضئيل من الصفحات .

وبهداية الله وحده .. وبتوفيق منه سبحانه حاولت جاهدة أن أبحث فى هذا الموضوع الذى يفتح أبواب التأمل ، وآفاق الفكر ، ونوافذ الإيمان فيضيء القلب .. وينير العقل .. ويهز الوجدان .. فيزداد الانسان إيمانا بالله الواحد القهار الذى خلق كل شيء فهداه ففطره على فطرة التوحيد والايمان به هو وحده .. فكان الاسلام له هو وحده .. والاستسلام له هو وحده .. والخضوع لأوامره هو وحده .. وطاعته هو وحده .. والسجود له هو وحده .. فالأمر كله بيده .. فهو مالك الملك وصاحب الخلق والأمر :

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٤)

فكان ثمرة هذا التأمل ، وحصيلة هذه الدراسة « هذا الكتاب » الذى أتعرض فى الفصل الأول منه إلى كيفية الاهتداء إلى الفطرة ثم أتناول فى الفصل الثانى دين الفطرة ثم أنتقل فى الفصل الثالث للحديث عن شريعة الوجود ثم أنتهى فى الفصل الرابع لإثبات وبيان أن الاسلام كفطرة ربانية أودعها الله فى خلقه ، وكشريعة إلهية شرعها لعباده له أثره الشامل فى تحقيق استقرار الدولة ثم أختم هذا الكتاب بنتائج تلك الدراسة التى تؤكد وتوضح أن الاسلام هو فطرة الخلق وشريعة الوجود .

وأسأل الله العلى القدير أن يكتب لكتابى هذا التوفيق ، وأن يكون بذرة طيبة وعملا نافعا لكل من يقرأه ، وأطلب من الله التوفيق والعون والنور دائما وأبدا سائلة إياه عز وجل المغفرة والرحمة .

ولاأنسب فضلا إلى نفسى .. فليس لى الفضل فى شىء ففى البداية والنهاية الفضل من الله .. وإلى الله .. وبيد الله .. فكل كلمة كتبت ، وكل عبارة سطرت إنما هى بفضل من الله.. وبتوفيق منه سبحانه.. وبهدايته تعالى وحده.

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾
(النساء: ١١٣)

أحمدك ربى وأشكر فضلك ونعمتك التى أنعمت علىّ إنك أنت ذو الفضل العظيم .

ناهد عبد العال الخراشى

الفصل الأول

الاهتداء إلى الفطرة

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾

خلق الله الكون طائعا ...
وسبحانه خلق الانسان حرا ...
حاملا للأمانة مختارا ...
شاهدا بأن لا إله إلا الله ربا ، وبمحمد ﷺ رسولا ...
مؤمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر جميعا ...
فجعل سبحانه الاسلام دينا قيما ، والتوحيد وجودا كاملا ...
فمامن شيء إلا ويسبح بحمده تسبيحا صافيا ...
ومامن شيء إلا ويسجد له تعالى سجودا خاشعا ...
فاهتدى الانسان إلى فطرة الله التى فطر الناس عليها راضيا سعيدا آمنا مطمئنا متجها إلى الله .. خالق الخلق أجمعين .. رب العالمين .

* * *

وجود الله قديم قديم ...
يمتد فى الأزل من قبل أن يخلق الأزل ...

يمتد فى الزمان من قبل أن يخلق الزمان ...
يهيمن على المكان من قبل أن يخلق المكان ...
لا وجود قبله سبحانه غيره سبحانه...
كان الله قبل أن يوجد القبل والبعد والزمان والمكان ...
هو الأول ... وهو الآخر
خرج الوجود بكلمة منه سبحانه ...
وسيذوب الوجود بكلمة منه سبحانه ...
ثم يعيد بعث الوجود بكلمة منه سبحانه ...

عندما يريد الله تعالى أن يخلق شيئا فإنه تعالى يوجده بكلمة الأمر الآلهى وهى كن فيكون ...

فلقد حدثنا الله تعالى أنه عندما يريد شيئا فإنه يأمره أن يوجد ...

قال تعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[(١)]

وهذا هو أمر التكوين ..

وأمر الله تعالى نوعان : أمر تكوين ، وأمر تشريع[(٢)] .

أما أمر التكوين فيعنى كل القوانين العلمية المعقدة المحكمة التى يخضع لها الكون فى وجوده وتطوره . وأما أمر التشريع فهو مايوحيه الله تعالى لأنبيائه كى يبلغوه للناس ليأخذوا به ويتبعوه .

وأمر التكوين يسبق أمر التشريع بالنسبة إلينا .. وأمر التكوين لاحرية فيه ، بمعنى أن السماء ليست مختارة فى أن تكون أو لاتكون ، وكذلك الأرض بقوانينها الحاكمة .

---

(١) يس: ٨٢ .
(٢) احمد بهجت: انبياء الله ص ٩

أما أمر التشريع ففيه مجال واسع لحرية الارادة .. وفيه مجال للمسئولية .. وفيه اختيار يترتب عليه إمكان المساءلة .

والآيات القرآنية تعبر عن ذلك أصدق تعبير ..

قال تعالى عن أمر التكوين :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (١)

وقال تعالى عن أمر التشريع :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (٣)

إن الحرية تهيمن على أمر التشريع ، وهى مستبعدة تماما عن أمر التكوين ، ونجد ذلك واضحا فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٤)

وليس هذا التعبير الذى يوضح رفض السموات والأرض من حمل الأمانة إلا رفضا يعبر عن ما لا يستطعن حمله بحكم التكوين الأصلى والتقدير الأزلى.

فليس رفضهما هنا اختيارا حرا وإنما هو رفض يجىء من كونهما خلقتا طائعتين غير مكلفتين .

---

(١) فصلت: ١١ (٢) البقرة: ٢٥٦

(٣) الكهف: ٢٩ (٤) الأحزاب: ٧٣

ولقد حدثنا الله تعالى أنه خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش . خضع له كل شىء ، ودان له كل شىء ، وسجد له كل شىء ، وقدسه كل شىء ، وحكمت قبضته سبحانه مقاليد كل شىء .. واحتاج إليه كل شىء .

وهو الغنى الذى لايحتاج إلى أحد .. ويحتاج إليه كل أحد .

***

انتهى الأمر ونفذت مشيئة الله تعالى .

وخلق الكون .

وسجد بعد خلقه لرب الخليقة .

سجد سجود احتياج واستمداد .

سجد سجود استسلام يحكمه نظام بديع محكم .

***

وكما أن أرجاء الكون تمتلىء بالظواهر المادية، فإنها أيضاً مليئة بالظواهر الروحية،

وكما أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون مادياً فأبدع خلقه وتكوينه ورسم قوانينه الدالة على وجوده سبحانه .

وكما أن أرجاء الكون تمتلىء بالظواهر المادية ، فإنها أيضا مليئة بالظواهر الروحية ، وكما أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون ماديا فأبدع خلقه وتكوينه ورسم قوانينه ومظاهره فى إحكام واتقان ، فإنه سبحانه عنى بالكون روحيا ورعاه فى زواياه الأخلاقية والعقيدية ، فأرسل إليه الرسل والأنبياء منذرين مبشرين .

والانسان ذاته ــ بالنسبة لذاته ــ آية من آيات الله ، وكلمة من كلماته تلزمه الحجة .

ولو طاف الانسان داخل نفسه ، أو ساح بذهنه فى آفاق الكون لرأى كلمات

الله وآياته ، ولو استجمع الانسان نقاءه الداخلى وأنعش به قدرته على التذكر ، فسوف يرى كلمات الله يوم أخذ العهد على آدم وذريته .

قال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ (١)

إذن تلزم الانسان الحجة .

لماذا يرسل الله تعالى أنبياءه إلى الناس إذا كان قد ألزمهم الحجة ؟

الجواب : أن أنبياء الله تعالى جميعا رحمة ، ولو أن الله تعالى لم يرسل أنبياءه إلى الناس لألزمهم حجته ، ولكان ذلك عدلا منه سبحانه . ولايعامل الله عباده بالعدل وحده ، لأن الله أكبر . إنما يعاملهم بالرحمة والأنبياء هم الرحمة .

فبعث كل نبى رحمة لقومه أو زمانه حتى جاء خاتم الأنبياء رحمة للعالمين .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٢)

ولولا محمد بن عبد الله ﷺ لماعرفنا قصص الأنبياء كما وقعت بحق .(٣)

أنبياء الله تعالى هم أمر التشريع .

هم رسله إلى البشر .. لايختارون أنفسهم للرسالة .. لايصلون للرسالة نتيجة كسب وقصد وجهد أو اختيار . إنما يختارهم الله .. يختارهم لعلمه السابق أنهم أنقى من فى الوجود وأفضل بعدها يبعث إليهم رسالاته .. ويضيفهم الله إلى نفسه تشريفا وتكريما فيسميهم رسل الله .

وهناك سبب آخر لإرسال الله لأنبيائه ورسله إلى الناس وهو : تذكير الناس من حين لآخر بالشهادة التى شهدوها على أنفسهم والتى أصبحت حجة عليهم

---

(١) الأعراف: ١٧٢ (٢) الأنبياء: ١٠٧

(٣) احمد بهجت: انبياء الله ص ١٧

وهى أن الله عز وجل هو ربهم حيث أن من طبيعة بنى الانسان النسيان والغفلة ، وإذا غفل الانسان ضل ، وانغمس فى طريق ملذاته وابتعد عن طريق الله .

لذلك أرسل الله أنبياءه ليذكروا الناس ويهدوهم إلى الصراط المستقيم حيث أراد الله عز وجل أن يأتى بالهدى إلى عباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور فعرفهم طريق الخير والشر وهداهم السبيل وذلك عن طريق الرسل الذين اصطفاهم الله عز وجل وأوحى إليهم بالهدى ودين الحق ليبلغوه إلى الناس ويدعوهم إليه .

وكما كان الأنبياء والرسل رحمة للناس ، فإنهم كانوا أيضا رسل سلام وهداية للبشرية . وهذه الهداية إن دلت على شيء فإنما تدل على حب الله لعبده الذى خلقه فى أحسن تقويم ، وكرمه بسجود الملائكة له ، وميزه بالعقل والإرادة ، وفضله عن كثير ممن خلق تفضيلا ، وأرسل إليه رسله وأنبياءه هداية ورحمة وبشرى وذكرى للعالمين .

إذن يعامل الله عباده بالعدل والرحمة والحب .

ونستطيع أن نستبين ذلك كله إذا تأملنا هذه الآيات الكريمة :
قال الله تعالى :

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [1]

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [2]

﴿ لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [3]

﴿ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [4]

---

(١) الأعلى: ٩ — (٢) الغاشية: ٢١

(٣) الحجرات: ١٧ — (٤) الفتح: ٢

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾ (١)

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (٢)

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (٣)

﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٤)

﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ ﴾ (٥)

﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (٦)

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ (٧)

﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٨)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٩)

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (١٠)

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (١١)

---

(١) الحديد: ٩ (٢) النساء: ٢٦ (٣) الشعراء: ٧٨
(٤) الأنعام: ٧١ (٥) آل عمران: ٢٠
(٦) طـه: ٤٧ (٧) طـه: ١٢٣
(٨) الحج: ٦٧ (٩) الفتح: ٢٨
(١٠) النجم: ٢٣ (١١) الاسراء: ٧٠

إن من يتتبع طريق الأنبياء والرسل يجد أن دعوتهم كانت واحدة ، ورسالتهم واحدة ، وطريقهم واحد ، وهدفهم واحد وهو تعريف الناس وتذكيرهم ودعوتهم وهدايتهم إلى الله وأنه سبحانه وتعالى الإله الأحد الصمد فاطر السموات والأرض ربهم ورب كل شيء ..

ويرسل الله سبحانه وتعالى الرسل للناس ليبينوا أمرين هما :[1]

(١) الأمر الأول :

رسم طريق الهداية فى أصوله وقواعده ، طريق الهداية فى العقيدة ، وطريق الهداية فى الأخلاق ، طريق الهداية فى التشريع ، أى رسم الطريق الذى يسود به الأمن فى المجتمع ، وتكون به السعادة وهو طريق لايرسمونه من عند أنفسهم ، ولايخترعونه من بنات أفكارهم وإنما يتلقونه عن الله فيبلغونه للناس ، ويعملون جهدهم على نشره وتحقيقه .

(٢) الأمر الثانى :

بيان الآثام التى أمر الله سبحانه وتعالى باجتنابها ، وهى آثام تضر بالفرد فى نفسه وتضر بالمجتمع . وإذا كانت بعض هذه الآثام منتشرة فى البيئة التى يرسل فيها الرسول فإنه يعنى بها عناية خاصة .

ولقد جرت سنة الله فى أنبيائه أن يؤيدهم بالمعجزات الواضحة والخوارق ، فكان الله تعالى يعطى كل رسول أو نبى من الآيات مايتفق مع حال قومه وأهل عصره وعلوم زمانه أو يعطى كل رسول من الآيات مايستهدف إثبات شيء للناس .

وكانت معجزات الأنبياء جميعا تختلف عن رسالتهم ، باستثناء واحد .. معجزة محمد ﷺ .[2]

---

(١) الامام عبد الحليم محمود طه مع الانبياء والرسل ص ٢٠٠

(٢) احمد بهجت: انبياء الله — ص ١٨

إن طب عيسى ومعجزته فى شفاء الأمراض كانت شيئا يختلف عن الانجيل . وعصا موسى التى تتحول إلى حية جبارة كانت شيئا يختلف عن التوراة . إلا أن الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة هى نفس جوهر هذه الرسالة .

توحدت حقيقة الرسالة ومعجزتها فى كتاب واحد هو القرآن الكريم .

أسلوبه .. وقيمه .. وتشريعه .. وقصصه .. وأحكامه .. كل مافيه معجزة حية .. باقية .. لاتموت ، ولم يرسل الله مع هذا الكتاب معجزات أخرى لها قيمته .

ومن هذا الكتاب المعجزة الذى أنزله الله على خاتم رسله .. من القرآن الكريم .. عرفنا قصص الأنبياء كما وقعت بحق .

وإذا تأملنا ونظرنا إلى قصص الأنبياء فى القرآن .. سنجد أن هناك خيطا واحدا يشد كل قصص الأنبياء .. يبدو واضحا فى نسيجها المحكم المعجز الرائع .

وهذا الخيط هو الصراع .

صراع بين الحق والباطل .. بين الخير والشر ، صراع بين الانسان وظروفه وأهوائه ، صراع بين الطين والروح ، صراع بين النبى والكافرين به ، صراع بين النبى وأهل بيته .. أحيانا زوجته (لوط) .. وأحيانا ابنه (نوح) .. وأحيانا أبوه (ابراهيم) .

لايكاد النبى يبدأ دعوته حتى تنقلب الدنيا كلها ضده فجأة .

يضيع سلامه .. وأمنه .. ورزقه .. وتبدأ الهجمات عليه .. قبل البعثة يعيش النبى فى سلام عظيم من الخارج ، وقلق عظيم من الداخل .. وبعد نزول الوحى ترتفع أعلام السلام الداخلى وترفرف داخل الروح . ويتحطم تماما أمنه الخارجى وسلامه وراحته .

ونجد فى وسط هذا الصراع العنيف الدامى أغراضا تحرص قصص الأنبياء على إبرازها واستهدافها وتأكيدها منها ما يلى :

١ — الدعوة إلى الله .
٢ — إثبات اليوم الآخر .
٣ — تبشير المؤمنين وتحذير الكافرين .
٤ — بيان سنة الله فى تدمير المكذبين بالدين .
٥ — بيان نعمة الله على أنبيائه ورسم الصورة المثلى للعلاقات الانسانية كما يراها الله عز وجل .
٦ — بيان أن الرابطة الحقيقية للانسان هى الايمان بالله ، والحب فى الله .
٧ — إثبات الوحى والرسالة .. وبيان أن الدين كله من عند الله وأن الله رب الجميع ومولاهم ، وأن جميع الأديان التى أنزلت على الأرض من عهد آدم إلى عهد محمد هى فى أصلها دين واحد هو إسلام الوجه والقلب لله .

تختلف أساليب الأنبياء فى الدعوة : وتختلف أصواتهم ولغاتهم فى الحديث لقومهم .. لكنهم جميعا يقولون كلاما واحدا يتصل بالله .

لا إله إلا الله وحده لا شريك له

﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (١)

لا معبود سوى الله وحده لا شريك له

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (٢)

شرعها للوجود كله.. فإن كل شىء مفطور على عبادته هو وحده سبحانه.. لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

وهذه الفطرة كانت ولم تزل وستظل قائمة منذ بدء الخلق حتى يوم الدين .

(١) الأعراف: ٦٥
(١) آل عمران: ٦٤

ولما كانت إرادة الله سبحانه وتعالى أن يكون الدين فى الأرض من بدء الخليقة هو الاسلام ، فقد نزلت على آدم كلمات تلقاها من ربه ليعمر الأرض بأمر الله على أساس أن الكون كله .. سماؤه وأرضه ، الجنة التى سكنها آدم من قبل أن يهبط إلى الأرض ، النار التى أنذر بها إن عصى ربه ، الدنيا والآخرة ، والعالم كله فى قبضة الله وفى حكمه ، يسير على منهج حياة أحكمت أسسه بيد الحق الخالق البارىء سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾[1]

وآدم مسئول عن تنفيذ المنهج الذى ينبغى أن تحكم به الأرض ، وتحيا به النفوس المنبثة من الزوجين آدم وحواء .

وعاش آدم يتلقى كلمات الله ليستوعبها ، ويقضى بها فى نفسه وفى زوجه . قال تعالى :

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]

وجاءت الذرية وتكاثرت ، وعاشت تحت مظلة ذلك المنهج الإلهى ، تلبى امر الله بفطرة سليمة مع الكون الذى فطره الله ــ تبارك وتعالى ــ على طاعته .

فطاعة الانسان لله ــ عز وجل ــ طاعة فطرية ، ويظل الانسان خاضعا لقانون الفطرة حتى يشب من طور الطفولة إلى مرحلة الصبا ، ثم يصير شابا يافعا، يفكر فى الكون ، وينظر فى ملكوت الله ، ويتأمل فى بديع صنع الله ليدرك ذلك التناسق والتكامل والترابط بين عناصر الكون كله ، فإن قدرت له الهداية من الله تبارك وتعالى ــ فإن بصره وبصيرته ، وعقله وتفكيره وكل أحاسيسه تعيش روعة

---

(١) السجدة: ٧　　　　(٢) البقرة: ٣٧، ٣٨

الإبداع الإلهى ، وقدرة الخالق سبحانه وتعالى فى خلق الكون الفسيح ، ويدرك الانسان الذى أنعم الله عليه بنعمة الهداية آيات الله فى كونه :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (١)

ذلك الحق الذى ينادى جميع خلق الله من البشر :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

وما الإسلام الذى جاء به سيد المرسلين ـــ محمد عليه الصلاة والسلام إلا ذلك العهد الأول الذى أخذه الحق سبحانه وتعالى على خلقه فأسلموا له وجوههم إذ ناداهم بقوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٣)

تصرح هذه الآية الكريمة أن الله تبارك وتعالى بين هنا هداية بنى آدم بنصب الأدلة فى الكائنات ، بعد أن بينها عن طريق الرسل والكتب فقال :

واذكر أيها النبى للناس حين أخرج ربك من أصلاب بنى آدم ونسلهم ومايتوالدون قرنا بعد قرن ، ثم نصب لهم دلائل ربوبيته فى الموجودات ، وركز فيهم

---

(١) فصلت: ٥٢ (٢) البقرة: ٢١، ٢٢
(٣) الأعراف: ١٧٢ ـــ ١٧٤

عقولا وبصائر يتمكنون بها من معرفتنا ، والاستدلال بها على التوحيد والربوبية ، حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم : ألست بربكم ؟ قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا بذلك على أنفسنا .. لأن تمكينهم من العلم بالأدلة وتمكنهم منه فى منزلة الإقرار والاعتراف . وإنما فعلنا هذا لئلا تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا التوحيد غافلين لانعرفه أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ، وكنا ذرية لهم فاقتدينا بهم ، أفتؤاخذنا يارب فتهلكنا بمافعل المبطلون من آبائنا ، بتأسيس الشرك الذى جرونا عليه .. فلاحجة لكم ومثل ذلك البيان الحكيم نبين لبنى آدم الدلائل على وجود الله ليرجعوا عن مخالفتهم وتقليد المبطلين .(١)

إن هذه الآية العظيمة تعبر عن كنز من الكنوز الربانية حيث تعرض قضية التوحيد من زاوية عميقة وهى زاوية الفطرة التى فطر الله عليها البشر ، وأخذ عليهم الميثاق فى ذات أنفسهم وذات تكوينهم . إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة فى الكيان البشرى . فطرة أودعها الخالق فى هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها .

إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى فلاحجة لهم فى نقض الميثاق — حتى لو يبعث إليهم الرسل يذكرونهم ويحذرونهم — ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف ، وألا يكلهم كذلك إلى عقولهم التى أعطاها لهم فقد تضل وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

من يتأمل هذه الآية المباركة يتذكر على الفور الآية التى تقول :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾

---

(١) المجلس الأعلى للشئون الاسلامية: المنتخب فى تفسير القرآن الكريم، الطبعة السابعة، ص ٢٣٥

إن بين هاتين الآيتين الكريمتين رباط محكم وعروة وثقى حيث أخرج الله عز وجل من أصلاب بنى آدم ونسلهم ذريتهم وبين لهم دلائل وجوده وربوبيته ثم أشهدهم على أنفسهم بسؤاله :

ألست بربكم ؟ فقالوا : بلى .. شهدنا .

وهذه الشهادة تعتبر حجة عليهم .. فهذا ميثاق وعهد مأخوذ على بنى آدم وإقرار واعتراف وشهود منهم على ربوبية الله ووحدانيته وذلك حتى لايقولوا يوم القيامة لقد غفلنا عن هذا .. فهذه الشهادة ، وهذا الاعتراف والإقرار هو فطرة فطرها الله وأودعها فى خلقه ولذلك أمر بنى آدم أن يقم وجهه للدين لأنه منذ نشىء الخليفة مفطور على التوحيد لله والاتجاه إليه عز وجل وإلى دينه .

إذن هناك ترابط متماسك بين الآيتين حيث أن فطرة الله تتكاتف وتتحد وتتفق مع الميثاق والعهد الذى أخذه الله على بنى آدم ، وهذا الميثاق هو الفطرة الربانية المفطور عليها جميع الخلق وهى : الشهود بربوبية الله عز وجل ، وتوحيده ، وإقامة الوجه لدينه .. دين الإسلام .. إسلام الوجه والقلب والكيان كله لله سبحانه وتعالى ، والاتجاه والالتجاء إليه هو وحده فهو تبارك وتعالى رب العالمين ورب كل شىء .

ولأن الله رحيم بعباده وعليم بالنفس الإنسانية التى تغفل وتنسى وتجادل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير أرسل الله أنبياءه ورسله إلى الناس ليذكروهم فى كل لحظة بعهدهم الأول وأن العهد كان مسئولا وحتى لايكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

وبذلك هناك حجتان على بنى آدم تشهد باعترافهم وإقرارهم بربوبية الله عز وجل ووحدانيته ووجوده وهما :

(١) **الحجة الأولى** : ذلك العهد والميثاق الذى أخذه الله عز وجل على بنى آدم وذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم بأنه هو سبحانه وتعالى ربهم .

(٢) **الحجة الثانية** : إرسال الله عز وجل أنبياءه ورسله إلى بنى آدم ليذكروهم

بعهدهم الأول ولدعوتهم وهدايتهم إلى الله الواحد الصمد ربهم ورب كل شيء .. فاطرهم وفاطر السموات والأرض ، ولتبشير المؤمنين وتحذير الكافرين .

وذلك كله من أجل تذكير الانسان وعدم إنكاره فإن غفل وأنكر الحجة الأولى فلن يستطيع أن يغفل وينكر الحجة الثانية .

قال تعالى :

﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾

(النساء: ١٦٥)

إن هذا الارتباط الوثيق بين هاتين الآيتين الكريمتين يقودنا إلى الاستدلال على صحة الحديث النبوى الشريف الذى يعبر عن فطرة الله حيث قال رسول الله ﷺ

« ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »

من يتأمل هذا الحديث الشريف يجد أنه يتفق مع الآيتين الكريمتين اللتين تدلان وتعبران عن أن الإنسان يولد وهو مفطور على التوحيد والاسلام لله عز وجل، والشهود بربوبيته هو وحده، وهذه هى فطرة الله التى فطر الناس عليها وهى ذاتها ذلك العهد الأول والميثاق الذى أخذه الله على بنى آدم وذريتهم حيث أقروا واعترفوا وشهدوا بربوبية ووحدانية الله جل جلاله .

وهنا أريد أن أقف وقفة تأمل تدل وتثبت وتؤكد أن رسول الله ﷺ لم يقل قولا مخالفا لماقاله الله عز وجل ، ولم يفعل فعلا معارضا لماأراده الله عز وجل أن يفعله ولم يأمر باتباع شيء إلا بماأمره الله عز وجل باتباعه .

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾

(النجم: ٣)

إذن كان كل قول وفعل للرسول عليه الصلاة والسلام متفقا لقول الله عز وجل ولاتباع أمره ولإقامة دينه والاتجاه إليه سبحانه هو وحده ، وتوحيده عز وجل هو

وحده، والاستعانة به تبارك وتعالى هو وحده، وعبادته جل جلاله هو وحده. وهذه هى الفطرة التى فطر الله الخلق عليها .

إن الاعتراف بالربوبية يقود مباشرة إلى الاعتراف بالعبودية ولكن عندما تختلط نوازع النفس وغرائزها وشهواتها المادية ، عندما تختلط حمأة الطين المسنون بالجانب العلوى فى الانسان .. بالروح التى نفخها الله فيه ، بذلك النور الذى يسرى بين جنباته ، عندئذ يعيش الانسان على وجه الأرض تتنازعه مراق الخير والطهر والكمال ، ومهاوى الشر والتمزق والضياع وتبرز هذه الحقيقة فى ثنايا القرآن واضحة جلية :

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (1)

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (2)

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (3)

ولقد أودع الله فى الانسان طاقة وإرادة ، ليست لغيره من الكائنات ، وأنعم عليه بنعمة الاختيار بين طريق الخير وطريق الشر ، وهى نعمة ليست لغيره من الكائنات .

فأما أن يختار طريق الثبات على تلبية النداء الأول « ألست بربكم » وإجابته لخالقه « بلى » أى حقا أنت ربنا ورب كل شىء ، ناصية الوجود كله بيدك ، ثم يسلم وجهه وأمره كله لله ، وهذا هو الاسلام الذى يولد به الانسان ... وهذه هى الفطرة التى فطره الله عليها

---

(1) البلد: ١٠ (2) الانسان: ٣

(3) الشمس: ٧ — ١٠

قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (١)

وأما أن يضل الطرق ، ويتعثر الخطى ، ويتخبط فى ظلمات الباطل ويتنكر للنداء الأول من الله : ألست بربكم ؟ فيضيع من تحت قدميه الطريق ... طريق الاسلام .

والاسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، والحصول على مرضاته ، فهذه هى غاية الاسلام ، وبالتالى هى غاية الانسان ، ووجهة الانسان ، ومنتهى أمله وسعيه وكدحه فى الحياة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ (٢)

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ (٣)

ولا جدال فى أن للإسلام غايات وأهدافا أخرى إنسانية واجتماعية ولكن عند التأمل نجد هذه الأهداف فى الحقيقة خادمة للهدف الأكبر وهو مرضاة الله تعالى، وحسن مثوبته فهذا هو هدف الأهداف أو غاية الغايات .

فى الإسلام تشريع ومعاملات ، ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتى يستريحوا ويبرأوا من الصراع على المتاع الأدنى ، ويفرغوا لمعرفة الله تعالى وعبادته والسعى فى مراضيه .

وفى الإسلام جهاد وقتال للأعداء ، ولكن الغاية هى :

﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ (٤)

---

(١) النساء: ١٢٥ (٢) الانشقاق: ٦

(٣) النجم: ٤٢ (٤) الانفال: ٣٩

وفى الإسلام حث على المشى فى مناكب الأرض والأكل من طيباتها ولكن الغاية هى القيام بشكر نعمة الله وأداء حقه .

﴿ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾[1]

وكل ما فى الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد إنما يقصد إلى إعداد الانسان ليكون عبدا خالصا لله ، لا لأحد سواه ، ولهذا كان روح الاسلام وجوهره هو التوحيد .[2]

إن التوحيد هو جوهر الرسالات السماوية جميعا ، والله سبحانه وتعالى يؤكد لسيدنا محمد خاتم النبيين ذلك قائلا :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَاعْبُدُونِ ﴾[3]

والتوحيد هو ما نعبر عنه فى الإسلام بأشهد أن لا إله إلا الله .. إن المعنى الحقيقى للتوحيد هو الاعتقاد اليقينى أن كل ما فى الكون من خلق ورزق ، وعطاء ومنع ، وحياة وموت ، وغنى وفقر ، وقوة وضعف ، وعز وذل مرده إلى الله سبحانه .

وإذا آمن الانسان بالتوحيد لم ينظر إلى غير الله فيكون خوفه منه ، ورجاؤه إليه، وثقته به ، واتكاله عليه وإذا اعتقد التوحيد رأى أن كل ما سوى الله مسخر لله، وإذا اعتقد التوحيد تحرر من ذل العبودية لمخلوق لأن كل مخلوق مسخر لله ، إن الكون كله فى قبضة الله ، إنه فى قبضة الله بالعلم والقدرة ، والإرادة والحكمة والتدبير .

وتتكاتف آيات الله وأحاديث رسول الله ﷺ على دعوة الانسانية إلى التوحيد

---

(١) سبأ: ١٥

(٢) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للاسلام، ص ٧

(٣) الانبياء: ٢٥

حتى تتحرر من رق العبودية . ولقد دعا جميع الأنبياء والرسل إلى التوحيد ، والتوحيد ثمرة وأساس لدعوة أخرى هى إسلام الوجه لله ، أو هى الاسلام .. الاسلام لله : إسلام القلب له ، وإسلام الجوارح له ، إسلام الكيان الانسانى كله لله ، وإذا فهم التوحيد على حقيقته واتخذته الانسانية شعارا لها كان علاجا لكثير من ألوان الضعف فى المجتمعات .[1]

ويلعب التوحيد دورا أساسيا فى حياة النوع الانسانى ، ويتوقف عليه صلاح الانسان فى الدنيا وخلاصه فى الآخرة ، وبقدر مايكون حظ الانسان من التوحيد.. يكون حظه من النجاة فى الآخرة .. ويكون حظه من رضاء الله عز وجل عليه فى الدنيا والآخرة .. والدنيا دار ابتلاء بينما الآخرة هى دار الجزاء .

توحيد الله تعالى إذن هو أخطر حقيقة فى الوجود ، سواء فى الدنيا أثناء الحياة الانسانية ، أو فى الآخرة يوم الحساب ، أو فى العالم الآخر الذى يبدأ بعد الآخرة ويستمر فى الجنة أو النار .[2]

إن توحيد الله تعالى هو الحقيقة الثابتة .. والبذرة النابتة .. والثمرة النافعة فى الحياة ومابعد الحياة .

إنه الشىء الجميل البراق الخالد الدائم الثابت الباق فى هذه الحياة ، وقد لايتصور طعم لحياة دون توحيد لله فيها ، ولامذاق لمنهج لايقوم على توحيد الله ، ولاهدى لطريق لايهدى إلى توحيد الله ، ولانور لسبيل لايقود إلى توحيد الله .

إن نعمة الله على الانسان عظيمة لاتعد ولاتحصى ، وإذا تأمل الانسان فى ملكوت الله ، وتفكر فى خلق الله للخلق والمخلوقات جميعا ، وتبصر وتدبر لآيات الله العظمى فى الكون والحياة لوجد أن مامن شىء فى هذه الدنيا إلا ويقول لا إله إلا الله ، ومامن شىء إلا ويسبح لله الواحد ، ومامن شىء إلا ويوحد الله الصمد .

فإذا كانت الكائنات والمخلوقات التى سخرها الله عز وجل لخدمة الانسان

---

(١) د. عبد الحليم محمود: مع الانبياء والرسل، ص ٨٠ـ٨٣

(٢) احمد بهجت: الله فى العقيدة الاسلامية، ص ٩

توحد الله وتحيا بقول لا إله إلا الله ، فكيف يقبل الانسان الذى منحه الله من النعم الظاهرة والباطنة الكثير الذى يعجز عن عده ، والوفير الذى لايستطيع إحصاؤه ، وفضله عن كثير ممن خلق أن يغفل عن توحيد الله . إن من يفعل ذلك فهو فى ظلمات ما لها من نور ينكشف ، ولا إشراقة لحياة تشرق ، وهذا بعينه هو الضلال المبين، والظلام الدامس، والجهل الكبير، والظلم العظيم. كيف لا نوحد الله وهو خالقنا وخالق كل شيء، أنبغى غير الله ربا وهو ربنا ورب كل شيء سبحانه لا إله إلا هو مالك الملك وصاحب الأمر والخلق تبارك الله رب العالمين.

إن توحيد الله تعالى هو النور الذى ينير القلب ، والشعاع الذى يضيء الروح والوجدان .. إنه منارة النفس ، وطهارة الصدر والفؤاد .. إنه السراج المنير لكل إنسان يستنير طريقه إلى الله .

إن توحيد الله جل جلاله هو النسمة العطرة ، والنفحة الطيبة فى حياتنا بل هو الحياة النابضة نفسها التى تحيى نفوسنا وتنير قلوبنا وتطهر أجسادنا فتسمو بنا إلى عالم نورانى حيث الصفاء والنقاء والحب الكبير لكل شيء من حولنا حبا فى الله عز وجل ومرضاة له تعالى .

ومعنى التوحيد : أن يعلم ويسلم الانسان بأنه لا إله إلا الله ، وأن يفرده تعالى بالعبادة والاستعانة ، فلا يشرك به أحدا ، ولا يشرك معه شيئا . وهذا معنى « إياك نعبد وإياك نستعين » .

ولقد خاطب الله تعالى رسوله محمد ﷺ بهذه الحقيقة وأمره أن يعلنها ويبلغها للناس فقال :

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ

﴿ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (١)

بل يبين القرآن أن خلق العالم كله علويه وسفليه وسمواته وأرضه ، لم تكن الغاية منه إلا أن يعرف الناس ربهم القادر على كل شيء ، العليم بكل شيء .

وهذه المعرفة هي باب كل هدى ..ومفتاح كل خير .. ونور كل طريق ، يقول سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾ (٢)

والانسان إذن لم يخلق لنفسه ، ولم يخلق لخدمة شيء من مخلوقات هذا الكون ، فكل ما في الكون سخر لخدمته ، كما قال الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٣)

إن كل ما في الكون قد خلق للانسان . أما الانسان نفسه فقد خلقه الله جل جلاله لمعرفته وعبادته ، وأداء أمانته في الأرض وكفى بهذا شرفا وفخرا ، فهو سيد في الكون ، عبد لخالقه وحده .

ومن أهم فضائل الوجود الانساني هو أن يعرف الانسان لوجوده غاية ، ويعرف لسيرته وجهة ، ويعرف لحياته رسالة ، وبهذا يحس أن لحياته قيمة ومعنى ،

---

(١) الانعام: ١٦١ ــ ١٦٤   (٢) الطلاق: ١٢
(٣) لقمان: ٢٠

ولعيشته طعما ومذاقا ، وأنه ليس ذرة تافهة فى الفضاء ، ولا شيئا نكرا فى الأرض ، ولا مخلوقا سائبا عشوائيا فى ليلة ظلماء ، كالذين جحدوا الله أو شكوا فيه ، فلم يعرفوا لماذا وجدوا ؟ ولماذا يعيشون ؟ ولماذا يموتون ؟

كلا إنه لا يعيش فى عماية . ولا يمشى إلى غير غاية ، بل يسير على هدى من ربه ، وبينة من أمره ، واستبانة لمصيره ، بعد أن عرف الله وأقر له بالوحدانية .

كلا .. فقد اتضحت وجهته الربانية .. وعرف من أين جاء ، ولم جاء ، وإلى من فراره ، وأين فراره ، ولمن يلجأ ، وبمن يحتمى ، إن حسبه أن يقرأ من كتاب ربه ما رد به إبراهيم خليل الرحمن على عبدة الأوثان فقال :

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[1]

من يتأمل فى هذه الآيات الكريمة يجد نفسه وطريقه ... فلا هدف إلا الله ، ولا غاية إلا الله ، ولا اتجاه إلا لله ، ولا عمل إلا لله .. فيجب أن يكون حياة الانسان بكل مافيها من نبضات ودقات وأحاسيس وأعمال ومعاملات وتأملات وعبادات لله وحده لا شريك له .. يجب أن يكون كيان الانسان كله لله ... لا إله إلا هو .

وهنا يحس الانسان بأمنه النفسى والروحى ، ويشعر بسعادته الحقيقية فيعرف أين هو ؟ وإلى أين اتجاهه ؟ أى طريق يسلكه ؟

ليس له إلا طريق واحد هو الله .

ليس له إلا هدف واحد هو الله .

ليس له إلا اتجاه واحد هو الله .

وهنا يهتدى الانسان إلى فطرته التى فطره الله عليها .

---

(١) الشعراء: ٧٧ — ٨٢

فمن ثمرات الربانية والاتجاه إلى الله وفوائده أن يهتدى الانسان إلى فطرته التى فطره الله عليها ، والتى تطلب الإيمان بالله تعالى ، ولا يعوضها شىء غيره . يقول تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (١)

واهتداء الانسان إلى فطرته ليس كسبا رخيصا ، وشيئا هينا . بل هو كسب كبير ، وغنى عظيم .. فيه يعيش المرء فى سلام ووئام مع نفسه ، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله ، فالكون كله ربانى الوجهة ، يسبح بحمد الله :

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (٢)

والحقيقة إن فى فطرة الانسان فراغا لايملؤه علم ، ولاثقافة ولافلسفة ، وإنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا .(٣)

وستظل الفطرة الانسانية تحس بالتوتر والجوع والظمأ ، حتى تجد الله ، وتؤمن به ، وتتوجه إليه .

هناك تستريح من تعب ، وترتوى من ظمأ ، وتأمن من خوف ، هناك تحس بالهداية بعد الحيرة ، والاستقرار بعد التخبط ، والاطمئنان بعد القلق، والسعادة بعد الشقاء .

فإذا لم يجد الانسان ربه — وهو أقرب إليه من حبل الوريد — فماأشقى حياته، وماأتعس حظه ، وماأخيب سعيه .

---

(١) الروم: ٣٠ (٢) الاسراء: ٤٤

(٣) د. يوسف القرضاوى: الخصائص العامة للاسلام، ص ١١

إنه لن يجد السعادة ، ولن يجد السكينة ، ولن يجد الحقيقة ... لن يجد نفسه ذاتها :

﴿ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [1]

إن الانسان خلق عجيب ، جمع بين قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله . فمن عرف جانب الطين ، ونسى نفخة الروح .. لم يعرف حقيقة الانسان، ومن أعطى الجزء الطينى فيه غذاءه مما أنبتت الأرض، ولم يعطى الجانب الروحى غذاءه من الإيمان ومعرفة الله ، فقد بخس الفطرة الانسانية حقها وجهل قدرها وحرمها مابه حياتها وقوامها .

قال ابن القيم[2] ـــ رحمه الله :

فى القلب شعث لايلمه إلا الإقبال على الله .

وفيه وحشة لايزيلها إلا الأنس بالله .

وفيه حزن لايذهبه إلا السرور بمعرفته ، وصدق معاملته .

وفيه قلق لايسكنه إلا الاجتماع عليه ، والفرار إليه .

وفيه نيران حسرات لايطفئها إلا الرضا بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه .

وفيه فاقة لايسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره ، وصدق الاخلاص له ولو أعطى الدنيا ومافيها لم تسد تلك الفاقة أبدا .

وهذا ليس كلام عالم فحسب ، بل كلام ذائق مجرب ، عاش تجربة روحية يقول ماخبره وأحس به فى نفسه ، ومارآه ولاحظه فى الناس من حوله . إنها كلمات تعبر عن تأملات روحية وأحاسيس فطرية .

إنها الفطرة البشرية الأصيلة التى لاتجد سكينتها إلا فى الاهتداء إلى الله والإيمان به والالتجاء إليه .

---

(١) الحشر: ١٩

(٢) فى كتابه: مدارج السالكين

إنها الفطرة التى لم يملك مشركو العرب فى جاهليتهم أن ينكروها مكابرة وعنادا .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (١)

وقد يتراكم على هذه الفطرة صدأ الشبهات أو غبار الشهوات . وقد تنغمس فى ملذات الحياة . وقد تنحرف وتتدنس باتباع الظن أو اتباع الهوى ، فتميل إلى الطغيان والظلم فتحيل النور إلى ظلام .. والسعادة إلى شقاء وتضل الطريق . وقد يصاب الانسان بداء الغرور والعجب فيظن نفسه شيئا يقوم وحده ، ويستغنى عن الله فيفقد البصيرة لأنه هجر الفطرة السليمة .. الفطرة التى تتجه إلى الله .. مهتدية إليه بطبيعتها .. تحتاج إليه دائما وأبدا .. فقيرة إليه على الدوام .

بيد أن هذه الفطرة الأصيلة تذبل ولاتموت ، وتكمن ولاتزول فإذا أصيب الانسان من شدائد الحياة وكوارثها بما لا قبل له به، ولا يد له ولا للناس فى دفعه ولارفعه ، فسرعان ماتزول القشرة السطحية المضللة ، وتبرز الفطرة العميقة الكامنة وينطلق الصوت المخنوق المحبوس داعيا ربه منيبا إليه كما قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (٢)

هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون فى تاريخ الأمم والأديان والحضارات فقد وجدوا الانسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بإله حتى قال أحد كبار المؤرخين :(٣)

«ولقد وجدت فى التاريخ مدن بلا قصور ولا مصانع ولا حصون ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد»

---

(١) العنكبوت: ٦١
(٢) الاسـراء: ٦٧
(٣) المؤرخ الاغريقى القديم بلوفارك

ولهذا كانت مهمة رسل الله كافة فى جميع الأعصار ، هى تحويل الناس من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق ، وكان نداؤهم الأول إلى قومهم :

﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ (١)

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (٢)

ولهذا اهتم رسل الله بإثبات وحدانية الله تعالى فى ربوبيته وألوهيته واستحقاقه أن يفرد بالعبادة دون غيره ، وفى هذا يقول القرآن :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (٣)

هناك شعور فطرى ينبع من أعماق الانسان ويستمد من كيانه كله، لا من عقله وحده ، ولا من وجدانه بمفرده .. شعور يجده الانسان فى نفسه بغير تعلم ولاتلقين ولااكتساب .. شعور يدرك ويؤمن بأن هناك إله واحد قادر على كل شيء .. يهيمن على كل شيء .. ويدبر كل أمر ، ويحيط علما بكل شيء ، وتوسع رحمته كل شيء ، ويغفر لمن يشاء ، ويعطى من يشاء .. إله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .. إذا أراد شيئا فإنما يأمره بأن يكن فيكون .

﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٤)

وكلما كان الانسان أسلم فطرة وأزكى نفسا . رق حجابه وتفتحت عين

---

(١) النحل: ٣٦

(٢) ذكر القرآن هذا القول على لسان نوح وهود وصالح وشعيب فى سورة الأعراف ـــ الآيات: ٥٩ ـــ ٦٥ ـــ ٧٣ ـــ ٨٥

(٣) الانبياء: ٢٥

(٤) مريم: ٣٥

بصيرته ، وارتفع عن جاذبية الطين ، وحلق فى أجواء الروح ، وحينئذ يشعر بأن وجود الله يملأ عليه أقطار نفسه ، ويغمر كيانه كله .. فيهيم حبا لله .. ويسبح فى نور الله . فيسير فى طريق سعيدا به ولايرضى بديلا عنه .. إنه الطريق إلى الله فيتحقق له الأمن النفسى والسعادة الروحية .. والطمأنينة القلبية فلايشكو إلا إلى الله ولايستعين إلا بالله ولايحمد إلا الله ولايسجد إلا لله ولايعبد إلا الله وحده لاشريك له ... لا إله إلا هو رب العالمين .

إن هذا الانسان يشعر بلمسات حنان الله عليه من كل جانب ، ويشهد آثار نعمته ودلائل حبه وهو يشعر بأن وجود الله أظهر من كل شيء .. بل هو دليل كل شيء .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (1)

هذا مانقصده بالفطرة :

إن الانسان منذ عهد آدم سواء أكان جاهلا أم عالما — لو جرد نفسه من آثار الوراثات المختلفة ، ومحا من ذهنه كل مايربطه بالمكان الذى يعيش فيه ، والمذهب الذى ينتمى إليه ، ثم تفكر بعد ذلك فى الكون ، وفى نفسه ، وتأمل فى كل شيء من حوله ، صغيرا كان أم كبيرا لاندفع بفطرته وطبيعته ليجد نفسه ساجدا خاشعا أمام ربه العظيم .. مسلما بأنه لا إله إلا الله .

إن الشعور الدينى أمر ينبع من الفطرة أو يعود إليها ..

إن قراءة التاريخ البشرى ، رغم اختلاف الأرض والبقاع واللغات والتصورات ، تؤكد أن الإيمان كان يحتل نفس الانسان منذ أقدم الحضارات والعصور إلى اليوم ..

إن الانسان بحكم إبداعه وتركيبه — هو المخلوق الذى لابد له أن يؤمن .. هذه تركيبته التى خلقه الله عليها .. وأمام الانسان دائما حق الاختيار .. إ ا أن يؤمن بالله .. أو يؤمن بشيء غير الله .

(1) فصلت: ٥٣

إذا كانت الأولى نجا الانسان وارتفع... وإذا كانت الثانية هلك الانسان وهوى[1].

وفى فطرة الانسان .. فى الجزء الداخلى من روحه .. يوجد هذا الميل إلى العبادة .. ولقد سأل فرعون موسى سؤالا عن الله .. قال فمن ربكما ياموسى .. قال :

﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[2]

إن جميع الموجودات وكل الأشياء ـــ بمافيها الانسان طبقا للنص القرآنى تعيش فى ظل هداية تكوينية فطرية .. هداية تقودها إلى الله ... ولقد منح الله تبارك وتعالى لجميع الكائنات هذه الموهبة دون تفرقة .. أى أنه منحهم هذه النعمة بشكل عام .. فلم يخلق جماعة على فطرة الإيمان ، وجماعة أخرى على غريزة الالحاد أو الكفر ...

كلا .. إنما هى فطرة واحدة فطر الناس عليها ..

قال تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ (الروم: ٣٠)

وورد فى صحيح البخارى فى تفسير هذه الآية قول الرسول ﷺ :

«ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو .. يمجسانه»

والآية واضحة الدلالة فى الإشارة إلى معناها كما يلى :

فسدد وجهك واتجه إلى الدين بعيدا عن ضلالتهم ، وألزم خلقه الله التى خلق

---

(١) احمد بهجت: الله فى العقيدة الاسلامية، ص ١٣

(٢) طـه: ٤٩، ٥٠

الناس عليها ، وهى أنهم جميعا قابلون للتوحيد ، غير منكرين له ، ومايبنغى أن تغير هذه الخلقة ، ذلك الخلق على التوحيد هو الدين المستقيم ، ولكن المشركين لايعلمون حقيقة ذلك .[1]

وهناك تفسير آخر :[2]

فسدد وجهك واستمر على الدين الذى شرعه الله لك من الحنيفية ملة ابراهيم الذى هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التى فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره كما تقدم عند قوله تعالى : (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى)

وقوله تعالى (لاتبديل لخلق الله) قال بعضهم معناه لاتبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، وقال آخرون أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم فى الفطرة على الجبلة المستقيمة .

ولنتأمل معا تفسير سيد قطب لهذه الآية :

« فأقم وجهك للدين حنيفا » .. اتجه إليه مستقيما .. فهذا الدين هو العاصم من الأهواء المتفرقة التى لاتستند على حق ، ولاتستمد من علم ، إنما تتبع الشهوات ، والنزوات بغير ضابط ولادليل ، أقم وجهك للدين حنيفا مائلا عن كل ماعداه ، مستقيما على نهيه دون سواه :

(فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله) .. وبهذا يربط بين فطرة النفس البشرية وطبيعة هذا الدين وكلاهما من صنع الله ، وكلاهما موافق لناموس الوجود ، وكلاهما متناسق مع الآخر فى طبيعته واتجاهه . والله الذى خلق القلب البشرى هو الذى أنزل إليه هذا الدين ليحكمه ويصرفه ويطب له من المرض ويقومه من الانحراف . وهو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير . والفطرة ثابتة والدين

---

(١) المجلس الأعلى للشئون الاسلامية: المنتخب فى تفسير القرآن الكريم، الطبعة السابعة، ص ٦٠٦

(٢) تفسير ابن كثير: ص ٤٣٢، الجزء الثالث، دار المعرفة — بيروت

ثابت : (لاتبديل لخلق الله) فإذا انحرفت النفوس عن الفطرة لم يردها إليها إلا هذا الدين المتناسق مع الفطرة . فطرة البشر وفطرة الوجود .

(ذلك الدين القيم. ولكن أكثر الناس لا يعلمون)... فيبغون أهواءهم بغير علم ويضلون عن طريق الواصل المستقيم[1].

فالآية تفسر نفسها بنفسها كمانرى ..

إن الفطرة موجودة فى الانسان كماهى فى الناموس الكونى ، فهى تعبير عن الوسط العدل ، والخير الفاضل ، وبذلك تنطبق على كل شيء فى هذا الوجود ، ففى النبات فطرة ، وفى الحيوان فطرة ، وفى الكون فطرة ، وكل ماسخره تعالى من سموات وأرض يسير بهذه الفطرة فلاانحراف عنها وإلاعمت الفوضى وشاع الفساد وانطبقت السماء على الأرض وانهدم كل شيء .

والفطرة صلاح وإصلاح ، ونظام قسط وكمال لانقص ولاعوج ، فالنبات يسير بفطرة سليمة ، فإذا أزدنا الماء إلى النبات فسد ، وإذا أقللنا الماء عن النبات ضعف أو مات ، فهناك إذن وسط عدل أو خير فاضل فى النبات ، وكذلك الأمر بالنسبة للحيوان والكائنات الأخرى .

وإذا تأملنا الكواكب السيارة من حولنا تأكد لنا أنها تسير على فطرة سليمة[2]، إذ أنه إذا انحرف كوكب كالقمر عن مداره المرسوم ومساره الفطرى فسد النظام والتناسق والتناسب الموجود فى الكون ، وارتطمت الكواكب بعضها ببعض واختل كل شيء ، ومااستمرت الحياة على الأرض .

وإذا تغير مسار الشمس درجات نحو الأرض اختفت الحياة على سطحها واحترق كل شيء حى ، وبالمثل إذا ارتفعت الشمس درجات عن مسارها المقرر ، ماتت الكائنات الحية زمهريرا .. فهناك فطرة سليمة إذن فى السموات والأرض .

والانسان إن لم يواكب الناموس الكونى ، ويسير مع الفطرة السليمة ، ويسعى

---

(١) سيد قطب: فى ظلال القرآن، الجزء الخامس ص ٢٧٦٧

(٢) جمال الدين الفندى ــ السموات السبع، ص ٢٠ ــ ٨٠

عاملا بالقانون الإلهى فى الأرض بفطرته السليمة المودعة فيه ويتخذ حكمة الله البالغة منارة يستضىء بها فى طريقه فإنه واقع لامحالة فى الفوضى والفساد .

والفطرة كقانون تربط الانسان والكون الطبيعة بالخالق فاطر السموات والأرض ومن ثم فإنها تربط العلم بالإيمان .

والفطرة كناموس إلهى يختلف عن القوانين البشرية التى تحاول أن تجرب لتكتشف أسرار مستحدثة ، وأدوات محددة ، وقياسات معينة للوصول إلى نتائج متواضعة يمكن أن تتحقق أو لاتتحقق ، وتصدق أو لاتصدق .

كما أن قانون الفطرة بالإضافة إلى أنه قانون سماوى فإن قواعده مرنة بدرجة تسمح له أن يصل إلى نتائج فيها صفات الحق والصدق .

لقد وردت الآيات البينات تبين لنا أن القانون السائد فى هذا الكون هو قانون الفطرة وقد أوجده تعالى لأنه خير قانون يصلح للخلق ، وأنه تعالى بواسع علمه ، وفيض رحمته ، وعظيم حكمته لم يخلق هذا الكون عبثا إنما خلقه فى انسجام وتناسب وتناسق وترابط ووحدة حتى يحقق الاصلاح والصلاح .

وهذه الفطرة التى فطر الله السموات والأرض عليها هى عملية خلق أتمها فاطر السموات والأرض فى أبهى صورة وأكمل نظام من المحال أن يتوصل إليه عقل بشرى أو يستبين كنهه انسان ، أو يدعى العلم به كائن ماكان ، وأنه لمن الغرور أن يحاول عالم من العلماء أن يخضع هذا الخلق لقانون يفترضه من عنده أو يظنه فى خياله :

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(الأنعام: ١٤)

وكما أن السموات والأرض خلقها تعالى بنظام فريد ، فكذلك الانسان خلقه تعالى فى أكمل تقويم ، وفضله على العالمين وحمله رسالة على الأرض إلى يوم الدين .

علينا إذن أن نتأمل الفطرة الانسانية ، وأن نستلهم من آيات الله البينات الحقائق والبديهيات والمسلمات والأوليات والمقدمات قبل أن نخوض فى بحث السلوك الانسانى إذ أن نعم الله الغامرة ، وحججه البالغة هى مرشدنا الأمين إلى فهم النفس والخلق ، وملهمنا الصادق إلى كشف الأسرار الخفية ، وقائدنا الخير إلى طريق الأمن والحكمة.

إن الله تبارك وتعالى قد أوصانا أن نتبع حكمة الدين ، وأن لانطع من أغفلنا قلبه عن الرشد وأسرف فى أمره وضل سواء السبيل فإنه تعالى وحده يعلم قصورنا وضعفنا ، ويعلم قدراتنا وحدود معرفتنا بماخلقه فينا من قوى ومايسره لنا من الأدلة والحجج والأسانيد كما أنه تعالى يعلم أن الانسان ليطغى حيث أنه يمكن أن يطيع غواية الشيطان ، وأهواء النفس، وطيش العقل وغروره ، فيبتعد عن طريق الأمن والسلامة ويظلم نفسه .

لقد أوصانا تعالى لذلك بالالتجاء إليه والسير فى الصراط المستقيم وهو العدل والقصد والحق، ولا نجد فيما أرشدنا إليه من اختلاف أو تناقض أو اعوجاج أو تبديل أو تحويل ، إذ أن ماأمرنا باتباعه هو صلاح وإصلاح ، وبه نحقق الغاية التى من أجلها خلقنا، وباتباع ما أمرنا غاياتنا من السعادة فى الدنيا والآخرة، ونزداد علماً بأنفسنا كما نزداد يقينا بربنا وخالقنا وموجدنا.

قال تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴾

(الروم: ٣٠)

إذن لكى يدرك الانسان حقيقته يجب أن يتوجه إلى دين الله ، وهذا الدين القيم هو حقيقة الفطرة الانسانية والذى ينحرف عن هدى الدين إنما ينحرف عن

فطرته السليمة ويتعدى حدوده ويعطل حكمة وجوده فيظلم نفسه ويهوى فى ضلال مبين .[1]

إن الفطرة رجوع إلى الحق ، وربط محكم بين العلم والدين ، ومن هذا القانون الربانى نستطيع أن نثرى أبحاثنا ، ونسير قدما نحو غاياتنا فى العلم والحكمة ، وبذلك تتسع معارفنا بالله والنفس والكون ونهتدى إلى حقائق لم نكن لنهتدى إليها إذ أن الهداية منة وتفضلا وتعطفا من الله وحده .

مما سبق يتبين لنا أن الفطرة التى أودعها الله سبحانه وتعالى فى جميع خلقه هى الاتجاه إليه ، وكل إنسان مهتد إلى طبيعته ، وإلى فطرته التى فطره الله عليها ، ولكن الميل إلى الأهواء والنزوع إلى الشهوات ، والاتجاه إلى الماديات جعل الانسان ينسى وماأكثر ماينسى الانسان فتكون النتيجة أن تذبل وتكمن هذه الفطرة النورانية وتغطى بالشهوات والرغبات الانسانية ولكن هناك حقيقة هامة يجب ذكرها ولابد من تسجيلها وهى :

أن هذه الفطرة لاتموت أبدا ولاتنتهى فهى خلقة طبيعية فينا .. من الممكن أن ينساها أو يتناساها الانسان ويغفل عنها ذاهبا إلى شهواته متبعا هواه ولكن عندما يفيق ويستعيد ذاكرته عندما يعود إلى طبيعته ، عندما يشفى من داء النسيان ويبرأ من آفة الغفلة يتذكر الله فيتجه إليه ويرجع إلى رشده وصوابه .. إلى اهتدائه لفطرة الله ، وتبدأ مرة أخرى هذه الفطرة الربانية فى الظهور والانتشار فى كيانه كله فتقوى وتغطى وتسيطر على جميع أهوائه ورغباته فلايلجأ ولايتجه إلا إلى الله ، ولايستسلم إلا لله، ولايؤمن إلا بالله .. فهذه فطرة الله التى خلقها وأودعها فى خلقه ولاتبديل لخلق الله .

قال تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ﴾

(١) د. حسن الشرقاوى: نحو منهج علمى اسلامى، ص ٢٨٧

الدين إذن فطرة فى الانسان ، وإقامة الوجه للدين هى فطرة سليمة فى الانسان إذ هى استرسال مع الله وإسقاط للتدبير معه تعالى ، وتوكل دائم عليه فى كل أمر وفعل وعدم الاعتراض بالكلية على مشيئته وقضائه .

إن الانسان يحتاج دوما إلى المجاهدة فى العلم والعمل الصالح ، والتأمل فى نفسه وفى الخلق والكون جميعا ليوافق فطرته ، وليهدى إلى الاستقامة والعدل ، ويأمرنا الله عز وجل بأن نتجه إلى الدين .. ذلك الدين القيم الذى اصطفاه سبحانه وتعالى وارتضاه لعباده لأنه هو الفطرة الربانية ، ولن نجد الاستقامة والهداية والسلامة فى دين غيره . فهذه هى فطرة الله وخلق الله ولن نجد لخلق الله تبديلا .

فالفطرة هى الدين الحنيف .. هى الإسلام .. هى التوحيد .

والدين من صميم الفطرة ، وفى صميم الفطرة أن تحس بالله على نحو من الأنحاء وتتجه إليه فتهتدى إلى طريق النور ، والصراط المستقيم .. وإلى الدين القيم .. دين الفطرة .

الفصل الثانى

دين الفطرة

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾

خلقنا الله عز وجل على الفطرة ...
وفطرة الله هى الدين القيم ...
والدين القيم هو الاسلام ...
والاسلام هو الدين الذى اصطفاه الله لنا ...
فاهتدينا إلى الله ...
واتجهنا إليه سبحانه رب العالمين ...
خالق الكون والناس أجمعين ...
فأنعم علينا بنعمة الإيمان ...
ومن علينا بفيض الحنان ...
فأصبحنا مؤمنين به هو وحده ...
شاهدين بوحدانيته هو وحده ...
مقرين بقدرته هو وحده ...
مسلمين له هو وحده ...
لا إله إلا هو وحده لا شريك له ...
رب العالمين .. رب العرش العظيم ...

***

ففى صميم الفطرة أن تحس بالله على نحو من الأنحاء .

وقد لاتهتدى إلى الصورة الصحيحة للعقيدة .. وقد تمزج بها كثيرا من الخرافات والأساطير .. وقد تتصور الحقيقة الإلهية تصورا منحرفا .. ومع ذلك يظل فى صميمها هذا الإدراك لوجود خالق قوى جبار لهذا الكون .

والكون كله مفطور على عبادة الله .

والتفسير العلمى لأحد مظاهر هذه العبادة أن الكون يطيع القوانين التى سنها الله لوجوده وحركته ومبدئه ومنتهاه ، ولايخرج على قانون واحد منها ، ولايتجه إلى الخروج عليها .[1]

الذرة فى تكوينها من مادة وطاقة ، بترتيب معين وصورة معينة ، وماتحمله فى طياتها من حركة وجذب ونظام .. هى الذرة .. لاتملك أن تكون غير ذلك . لاتملك أن تغير نظامها الذى خلقت به وفطرت عليه .. وهى بذلك تعبد الله .

والكون فى تكونه من هذه الذرات ، أو من المادة والطاقة على نحو معين وصورة معينة ، ومافى كيانه من حركة وجذب ونظام ومايقوم بين اجرامه من أبعاد ونسب ومسافات .. هو الكون .. لايملك أن يكون غير ذلك .. لايملك أن يغير نظامه فيقترب بعضه من بعض أو يبتعد بعضه عن بعض ، أو يتناثر أو يتجمع .. إلا على النحو الذى خلقه به الله وفطره عليه ، وهو بذلك يعبد الله .

والأرض فى تكونها من مجموعة العناصر التى تحتويها على نظام معين وصورة معينة وماتحمله فى كيانها من طاقة كهربائية مغناطيسية تحدد مكانها فى المجموعة الشمسية وتحدد مسارها وطريقة دورانها .. وماتشتمل عليه من إمكانيات الحياة سواء فى باطنها أو على سطحها أو فيمايحيط بها من غلاف جوى ، وما تتلقاه من إشعاعات من الكون كله ، ومن الشمس خاصة .. هى الأرض .. لاتملك أن

---

(١) محمد قطب: دراسات فى النفس الانسانية، ص ٢١١

تكون غير الأرض، ولا أن تغير شيئاً من صفاتها ولا إمكانياتها.. وهى بذلك تعبد الله .

والحياة على ظهر الأرض ، من الكائن الوحيد الخلية إلى النباتات إلى الحيوانات فى مختلف صورها وحالاتها وأنماطها وعاداتها وسلوكها .. لاتملك أن تكون غير ما هى عليه، ولا أن تؤدى دوراً غير دورها المقدور، ولا أن تخرج على القوانين التى تحكمها فى كل نمط من أنماطها، وهى بذلك تعبد الله.

ولقد يقول العلم أن الحياة على ظهر الأرض قد « تطورت » فارتقت وتعقدت ، وجدّت فيها وظائف وأعضاء ، وجدّت فيها وسائل وأهداف فإذا كان ذلك حقا ، فهو يجرى كذلك على الناموس الذى وضعه الله لتلك الكائنات وجعلها تسير بحسبه فى ارتقائها وتعقدها ، ومايجدّ عليها من أمور وتطورات يعتبر جزءا من العبادة التى تتوجه بها إلى خالقها ، ملبية مطيعة لمافطرها عليه من اتجاهات واستعدادات .

ثم يجىء دور الانسان .

والانسان كائن متفرد فى كل الخلق لايشبهه فى تفرده شىء ولايشاركه فى التفرد كائن من الكائنات .

إنه ــ قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله .

وهو بتفرده ذلك ــ يعبد الله على نحو يختلف عن عباده الآخرين ، وإن كان فى النهاية ــ يلتقى بها فى الاتجاه .

والعبادة ــ بمعنى الطاعة ــ مظهر من مظاهر الكون كله لايفترق فيه جماد عن نبات عن حيوان .

والانسان داخل فى ناموس الكون الأكبر لايتخطاه .

غير أن الناموس ــ بالنسبة للانسان ــ قد أعطانا كيانا متفردا فى أمرين عظيمين ، يتميز بهما عن غيره من الخلق :

الأمر الأول : أنه بالنفخة الإلهية التى تشتمل عليها روحه قد صار مدركا لنفسه وماحوله .

الأمر الثانى : أنه بهذه النفخة ذاتها قد صار « مريدا » لمايقوم به من أعمال وتصرفات .

وهذان العنصران الإدراك والإرادة المستمدان من النفخة العلوية ، هما فى الانسان محدودان بحدود ، وهذه الحدود قد قدرها الخالق بمايناسب المهمة التى خلق لها الانسان وهى الخلافة عن الله فى الأرض بلازيادة عن ذلك القدر ولانقصان فهو سبحانه يخلق بقدر مايشاء .

وبهاتين الصفتين تختلف كل أعمال الانسان عن أعمال الكائنات الأخرى ، فى أنها أعمال واعية يدرك الانسان غايتها وأهدافها ، وأنها أعمال يريدها الانسان ويقصدها .

ومن بين ذلك العبادة .

فعبادة الانسان إرادية وواعية ، فى جانب منها على الأقل ، بخلاف عبادة غيره من الكائنات فهناك جانب غير إرادى وغير واع من العبادة بمعنى الطاعة هو خضوع الانسان فى محياه ومماته ونموه وصحته ، وهضمه وتنفسه .. إلخ لقوانين الله التى فطره عليها .

يبقى له ـــ فوق ذلك ـــ جانبه المدرك المريد ، ومايصدر عنه من عبادة إرادية وواعية .

فإذا كانت الذرة تعبد الله بالطاعة التى لاإرادة لها فيها ولاوعى . وإذا كان الكون ، والأرض وماعليها من نباتات وحيوانات تعبد الله على نفس الطريقة فإن الانسان (إلى جانب هذا اللون من الطاعة) قد أُلهم طريقين لاطريقا واحد : طريق الطاعة وطريق العصيان ، وأعطى القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما والمضى فيه :

﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (١)

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (٢)

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (٣)

ومن ثم فهو المخلوق الوحيد من مخلوقات الأرض ــ الذى يعبد الله عن وعى وفهم وإدراك . وهو كذلك المخلوق الوحيد فى الأرض الذى يعصى الله ، حين ينحرف عن طريق الهداية ويختار طريق العصيان .

وهو إذ يعصى يخالف أوامر الله إليه باتباع طريق الهدى والاستقامة والنظافة والارتفاع ولكنه مع ذلك لايخالف الناموس المقرر له من الله . إذ الناموس المقرر له هو استعداده للهدى والضلال ، وحرية اختياره بين طريق الهدى وطريق الضلال .

ولكنه فى الحالين يدرك وجود الله .

ويدركه بالفطرة :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾ (٤)

وللفطرة طريقة خفية فى إدراك وجود الله ، والإيمان بوجوده ، والاتصال به ، والاستعانة به ، والتزود من زاده .

ولانتحدث هنا عن تلك الطريقة الخفية ، لأن كل حديث لن يوضح ماهيتها .. مادامت خفية الكنه ككل شىء فى هذا الكون الهائل العجيب .

---

(١) البلد: ١٠ (٢) الانسان: ٣
(٣) الشمس: ٧ ــ ١٠ (٤) الاعراف: ١٧٢

إنما نتحدث فقط عن بعض الوسائل المدركة التى توقظ الفطرة الكامنة ، وتوجهها إلى الله .

إن القدرة على النطق كامنة فى كيان الطفل ، ولكنها تحتاج إلى معونة خارجية لإيقاظها .. فكذلك مقدرة الفطرة على الاهتداء لوجود الخالق كامنة فى داخلها ، ولكن أمورا خارجية توقظها وتحركها وتنميها أو على أقل تقدير تعطيها الوعى والإرادة اللذين تتم بها بقية أعمال الانسان .

إن النفس البشرية ـــ ضالة أو مهتدية تحس إحساسا فطريا بالعجز إزاء قوة أكبر منها .. ويكون هذا العنصر لديها عنصر من عناصر الدين .

يحس الانسان غير العجز بالرهبة إزاء روعة الكون وتأخذه هذه الرهبة فيبحث عن الخالق .

إن الكون هائل رائع واسع فسيح الأبعاد .. ولهذا كله وقعه فى الحس البشرى .. لايمكن أن يهرب منه ولو أراد الهروب .

إنها روعة تبدهه فى كل اتجاه .. أينما كان الاتجاه ، وتبدهه فى كل مستوى وفى كل نطاق .. السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم .. تلك الأجرام الهائلة المعلقة فى الفضاء بغير عمد .

وتوالى الليل والنهار والضوء والظلام .

ودورة القمر من الهلال البازغ صغيرا ضئيلا كالخيط المنير .. إلى البدر الكامل ثم يعود ادراجه حتى يصير كالعرجون القديم .

والرعد والبرق والصواعق والمطر والسحاب .

والأرض وماعليها من جبال رواسى ، ووديان وأنهار ..

والكائنات التى لاعدد ولاحصر لهاعلى اليابسة وفى جوف الماء وفى السماء ، كل منها يختلف عن الآخرين .

وللفطرة طريقة خفية فى إدراك وجود الله ، والإيمان بوجوده ، والاتصال به ، والاستعانة به ، والتزود من زاده .

ولانتحدث هنا عن تلك الطريقة الخفية ، لأن كل حديث لن يوضح ماهيتها .. مادامت خفية الكنه .. ككل شيء فى هذا الكون الهائل العجيب .

إنما نتحدث فقط عن بعض الوسائل المدركة التى توقظ الفطرة الكامنة ، وتوجهها إلى الله .

إن القدرة على النطق كامنة فى كيان الطفل ، ولكنها تحتاج إلى معونة خارجية لإيقاظها .. فكذلك ، مقدرة الفطرة على الاهتداء لوجود الخالق كامنة فى داخلها، ولكن أمورا خارجية توقظها وتحركها وتنميها .. أو على أقل تقدير تعطيها الوعى والإرادة اللذين تتم بها بقية أعمال الانسان .

إن النفس البشرية — ضالة أو مهتدية — تحس إحساسا فطريا بالعجز إزاء قوة أكبر منها .. ويكون هذا العنصر لديها عنصر من عناصر الدين .

يحس الانسان — غير العجز — بالرهبة إزاء روعة الكون وتأخذه هذه الرهبة فيبحث عن الخالق !

إن الكون هائل رائع واسع فسيح الأبعاد .. ولهذا كله وقعه فى الحس البشرى .. لايمكن أن يهرب منه ولو أراد الهروب !

إنها روعة تبدهه فى كل اتجاه .. أينما كان الاتجاه .. وتبدهه فى كل مستوى وفى كل نطاق .. السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم .. تلك الأجرام الهائلة المعلقة فى الفضاء بغير عمد .

وتوالى الليل والنهار والضوء والظلام .

ودورة القمر من الهلال البازغ صغير ضئيلا كالخيط المنير .. إلى البدر الكامل .. ثم يعود ادراجه حتى يصير كالعرجون القديم .

والرعد والبرق والصواعق والمطر والسحاب .

والدقة المعجزة فى كل الخلق ..

فى انتظام الفلك فى دورته .. لايختل فيه شعرة فى الفضاء الرهيب ... فى الشطأة الصغيرة النابتة من الأرض تغلق الطين لتبرز إلى النور .. فى الطائر الصغير الناقف من البيضة يتحرك ويسقسق ويتناول من فم أمه الحب ..

فى الريشة الدقيقة الزاهية الألوان الدقيقة التركيب ..

فى كل شىء تقع عليه العين أو يدركه الحس ..

وأيا كان مستوى الانسان من العلم والثقافة والمدنية والرقى .. فالكون يوقع على حسه توقيعات شتى تناسب مداركه ومعلوماته .. وفى كل حالة يروعه ويهزه من الأعماق ...

يُروعه فيبحث عن الخالق !

هكذا بالفطرة ..

إنه يدرك من تجاربه أو يدرك بالبديهة أن كل شىء له صانع ، ومن ثم يبحث عن صانع الكون الأعظم الرائع الفسيح .

وقد يهتدى فى بحثه وقد يضل ..

قد يهتدى إلى أن الله هو الصانع .. وقد يضل فيعبد الكون ذاته بدلا من أن يعبد الله ..

ولكنه فى كلتا حالتيه يؤخذ بروعة الكون ، لأن فى فطرته أن يؤخذ بالجمال والروعة والجلال .

وفى كلتا حالتيه تكون هذه الروعة لديه عنصرا من عناصر الدين .

***

ويروعة الموت ..

فهو بالنسبة إليه حدث ضخم هائل مروع ..

إن الطفل ــ لشدة ألفته للحياة ، ورغبته فيها، وتشبثه بها ــ يحسب أن الحياة هى القانون الطبيعى للوجود من حوله ــ ويتصور أنها الأمر الدائم للأحياء .. بل أنه لفرط حيويته وتشبثه بالحياة ليضفى الحياة حتى على الجوامد المحيطة به ، فيتصورها حية تحس وتتحرك كالأحياء .

ثم يفاجئه الموت .. يراه يقع أمامه .. فيرتاع .

هذا الكائن الذى كان حيا أمامه يأكل ويشرب ، وينمو ويتحرك ، ويتعاطف معه ويستجيب .. هذا الطائر أو الحيوان الأليف .. أو الانسان إنه ــ فى لحظة يقع أمامه ميتا لاحراك به .. ساكنا لاينطق ولايقدر على شىء .. ولايتعاطف ولايستجيب .

وتصيبه هزة عنيفة تهزه من أعماقه ..

مامعنى هذا ؟ مامعنى الموت ؟ مامعنى الفناء ؟

والوجود إذن .. هذا الذى كان من قبل بديهية لاتحتاج إلى سؤال .. مامعناه ؟ ماحدوده ؟ ومن الذى يرسم هذه الحدود ؟

هنا نافذة إلى الله ..
نافذة إلى القدرة التى تخلق وتمنح الحياة ..
ثم تأخذ الحياة وتردها إلى العدم الذى لاوجود له ..

وقد يهتدى الانسان من هزته تلك إلى الله .
وقد يضل فيحسب أن الطبيعة أو الدهر أو ماشابهها هى التى تسلب الكائن الحياة ... أو يتصور الموت ذاته لها فى مقابل إله الحياة .

ولكنه فى كلتا حالتيه يروعه الموت .. ويقوده إلى الدين .

***

وتروعه الأحداث .. أى حدوث الأشياء .. كيف تحدث ؟ وبأى قوة عجيبة قادرة منشئة مبدعة ؟

الميلاد والممات .. الصحة والمرض .. القوة والضعف .. الرزق والمكانة .. الذهاب والمجيء .. وشتى الأحداث التى تصيب الانسان فى حياته أو يراها تقع أمام ناظريه ..

من الذى يحدثها ؟ وكيف يحدثها ؟

وهنا كذلك تنفتح نافذة إلى الله .. إلى القدرة القادرة التى تحدث الأشياء .. القدرة التى تقول للشيء كن فيكون .

ولقد يهتدى إلى الخالق الحق .. أو يتصور آلهة شتى تدبر الكون وتحدث الأحداث .

ولكنه فى كلتا الحالتين يؤخذ « بحدوث » الأشياء .. ويقوده ذلك إلى الدين .

***

تلك كلها عوامل تفتح فى القلب البشرى نوافذ إلى الخالق المدبر المبدع القدير، وتوقظ العقيدة الكامنة فى صميم الفطرة .. توقظها ولكنها لاتنشئها من لاشيء .

إن الكون الخارجى لايحدث فى النفس شيئا لايكون موجودا فيها من قبل !

الأصوات التى تحدث فى الكون ليست هى التى تنشيء القدرة على السمع ! فهى موجودة سواء سمعها الانسان أم لم يسمعها .. وهى موجودة ومع ذلك لاتسمعها الكائنات غير ذوات الآذان !

والأضواء التى تحدث فى الكون ليست هى التى تنشيء القدرة على الإبصار ! فهى موجودة سواء رآها الانسان أم لم يرها .. وهى موجودة وإن كانت لاتراها الكائنات التى ليس لها عيون !

وكذلك بقية الأشياء ...

ولكن حين توجد الحاسة فهى تستطيع أن تميز الأصوات والأضواء والأشياء ،

وتتأثر بها ، ثم تتكيف بهذه التأثرات تكيفات شتى ، تناسب فطرتها واستعداداتها .

فالحيوان يرى ويسمع .. والانسان يرى ويسمع .. ثم يتأثر كل منهما بالشيء ذاته تأثرا خاصا ، وينتج عنه فى حياة كل منهما أثر مختلف .

وكذلك الأمر فى فطرة الدين .

إن التوقيعات الكونية على الحس البشرى توقظ الفطرة وتوجهها إلى الخالق ... ولكنها لاتنشىء هذا التوجه ابتداء .. فهو من صميم الفطرة منذ لحظة الميلاد :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾

والقاعدة العامة فى كيان الحياة كلها أن الخارج لاينشىء شيئا ، مالم يكن الاستعداد له موجودا فى الداخل من قبل !

وهذا التوجه موجود فى داخل النفس .. وإنما ينتظر كالقدرة على النطق — أن توقظه من الخارج شتى المؤثرات .

والطفل ، منذ أن يأخذ فى الإدارك ، يأخذ فى هذا التوجه ، يأخذ يسأل سؤالا ملحا من عشر وعشرات الأمور .

من الذى صنع السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم ؟
من الذى أحدث النور والظلام ؟ والبرق والرعد والمطر والسحاب ؟
كيف ماتت القطة العزيزة أو الكلب أو الأرنب أو العصفور ؟
ومامعنى الموت ؟ ولماذا تموت الأشياء ؟
مااتساع الكون ؟ وماآخر مداه ؟
متى أكبر ؟

كيف جئت إلى هذا العالم ؟ ومن الذى جاء بى ؟
وفى كل مرحلة يتكون فى نفسه تصور جديد من تصورات الدين .

***

والكبت .. وعقدة أوديب .. وكل هذه الأساطير التى ابتدعها فرويد بلادليل علمى .. لاعلاقة لها البتة بفطرة الدين .. فالدين لاينشأ من الكبت ، ولاصلة له بالجنس أو العشق المزعوم .

وإنما هو شىء من صميم الفطرة ، ينمو كلما نمت ، ينمو نموا فطريا طبيعياً دون تدخل من أحد . وإنما التدخل الخارجى ينظمه ويوجهه الوجهة الصالحة ، ويقيمه على أساسه الصحيح .

والمنع أو الكبت ليس هو الذى ينشىء الدين فى النفوس . وإنما الأجدر أن يكون الدين هو الذى يساعد على نمو « الحواجز » التى تنظم انطلاق الطاقة الحيوية وتحدد لها مجاله النظيف .

فالدين تتبعه حتما وتلازمه قيم معينة ..

يتبعه قيام حواجز فى النفس لضبط السلوك والمشاعر ، وتقول للانسان هذا جائز وذاك أمر لايجوز .

وارتباط الدين بهذه الحواجز قديم قدم البشرية .

فإحساس الانسان الفطرى بضآلته إزاء القوة الخالقة ، وإحساسه بالروعة والجلال ، وإحساسه بأنه مأخوذ بمظاهر القدرة المختلقة ، هو الذى يجعله يخر ساجدا يتعبد .

ثم يحس — إحساسا فطريا — بغير ضغط خارجى — أنه ينبغى له أن يلتزم بحركات معينة وأفعال معينة وسلوك معين إزاء هذه القوة التى يتعبدها ، لكى ينال رضاها ويتقى غضبها . وهو يلمس فى حسه دائما مظاهر هذا الغضب وهذا الرضى .. على نحو من الأنحاء .

والخوف والرجاء .. أكبر خطين متقابلين فى النفس البشرية .. هما اللذان ينظمان هذا الالتزام إزاء القوة الخالقة ويجعلانه دستورا مفصلا من المشاعر والسلوك والأعمال والأفكار والطقوس والشعائر .

ومع هذا الالتزام تنشأ « القيم » المختلفة .. أو تتبلور .

والقيم معناها أن هناك حواجز تحجز الطاقة الحيوية لتضبط منطلقاتها ، وترفعها إلى أفق أعلى .

ومن ثم يرتبط الدين برغبة الالتزام الفطرية فى النفس البشرية ، ثم بالقيم والضوابط ، ارتباطا متسلسلا ، طبيعيا ، فطريا ، لاضغط فيه من الخارج ولا إكراه .

وإنما الديانات السماوية تنظم هذا كله وتوجهه الوجهة الصحيحة .

تنظم التوجه المبهم إلى القدرة الخالقة ، فتجعله توجها واعيا صريحا خالصا إلى الله .

وتنظم الالتزام فتجعله التزاما بعبادات وشعائر محددة يعلم الله حكمتها فيفرضها على الناس .

وتنظم القيم ، فتجعلها قيما عليا راشدة بريئة من الميل والهوى والنقص والانحراف .[1]

مما سبق يتبين لنا أن الانسان منذ ولادته يبحث عن خالق هذا الوجود .. فكل إنسان يشعر بفطرته أن ثمة واحدا قد نظم هذا العالم ودبره .

وإلى ذلك اهتدى الأعرابى بفطرته فقال :[2]

البعرة تدل على البعير ، وأثر الأقدام يدل على المسير . فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج كيف لا تدلان على اللطيف الخبير.

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٢٦

(٢) الشيخ عبد العزيز جاويش: الاسلام دين الفطرة، ص ٥٥

إن بحث الانسان عن الخالق يقوده إلى الدين ، والدين فى أى عصر وفى أى زمن معناه الخضوع لله خالق الخلق والاستسلام له ، والعمل على مرضاته .. وهذا نفسه هو معنى الاسلام . الدين والاسلام إذن بمعنى واحد . فالاسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى .

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن معنى الاسلام فقال :
أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك .

والاسلام بهذا المعنى لايختص ولايشير إلى بيئة معينة ، ولا إلى شخص معين ولا إلى زمن معين .

إن هذه الكلمة : مجرد الكلمة : تضعنا مباشرة فى جو عالمى مطلق ، بل فى جو عالمى يتخطى حدود هذا العالم الأرضى — إذا أمكن ذلك فلايتقيد به ولايتحدد بحدوده[1] .

هذا المنهج من إسلام الوجه لله والخضوع له ، إنما كان المنهج الابراهيمى وهو المنهج الذى رسمه الله سبحانه وتعالى دينا للانسانية أجمع ، ومن هنا كان قول الله تعالى :

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾

وهذا معناه أن يلقى الانسان بقيادة إلى الله فى القول والقلب والعمل .

وإذا ماألقى الانسان بقيادة إلى الله سبحانه وتعالى فى حياته كلها كان مسلما وحفظه الله كما حفظ ابراهيم عليه السلام .

لقد خلق الله الانسان وأودع فى فطرته التوحيد لله عز وجل : والشهود بربوبيته هو وحده والاتجاه إليه وإقامة الوجه لدينه .

إذن الدين هو الفطرة ، وفطرة الله المودعة فى الانسان منذ ولادته هى الشهود بربوبيته هو وحده فهناك ارتباط وثيق بين :

(١) الامام عبد الحليم محمود: مع الانبياء والرسل، ص ١٧١

دين الله الذى قوامه الاتجاه والاسلام له .

وفطرة الله التى تكمن فى الشهود بربوبية الله ووحدانيته والالتجاء إليه .

فكل منا يولد وفى داخله ميل للاتجاه إلى الله ، وكل منا يولد وفى كيانه شهود وإقرار بربوبية الله ووحدانيته .. وكلاهما فطرة الله الكامنة والموجودة فى كل إنسان .

ومن هنا جاء الأمر الإلهى لبنى آدم بإقامة الوجه للدين الذى يوافق الفطرة الربانية .

والدين الذى اصطفاه الله وارتضاه لعباده هو الاسلام وهو فطرة الله التى فطر الناس عليها .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩)

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾
(آل عمران: ٨٥)

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾

(المائدة: ٣)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾
(الروم: ٣٠)

فالإسلام هو الدين الذى اختاره الله وليس بعد اختيار الله واصطفائه أى اختيار آخر ، وليس بعد حكم الله أى حكم آخر .

الاسلام هو الفطرة الربانية التى فطرها الله عز وجل فى جميع مخلوقاته .

فالاسلام قبل كل شىء نظام .. نظام للحياة البشرية ذو خصائص مميزة .. نظام يقوم على أساس تحكيم شريعة الله وحدها كما هى مبينة فى كتابه وسنة رسوله فى أوضاع الحياة كلها .. وهذا التحكيم المقتضى الأول لشهادة : أن لا إله إلا الله بل هو المدلول الأول لهذه الشهادة ، المدلول الذى لايتحقق لهذه الشهادة بدونه وجود فى ضمير الانسان ولا فى حياته سواء .

والدين الذى فرضه الله يلتقى بالفطرة التقاءا كاملا .. ولكنه يلتقى بها على استوائها فى صورتها الصحيحة التى ينبغى أن تكون عليها .. ثم هو يقومها من انحرافها الذى تتعرض له فى أثناء نموها وتطورها .

بادىء ذى بدء يوقع القرآن على الحس البشرى ، على ذات الأوتار التى يتجه بها هذا الحس فطريا على العقيدة .

فإذا كان الاحساس بقوة الخالق المطلقة ، والاحساس بروعة الكون ، والاحساس بالموت والحياة ، والاحساس بحدوث الأشياء هى الأوتار الفطرية الظاهرة التى توجه الانسان إلى العقيدة ، فالقرآن وهو لسان الاسلام يوقظ هذه الاحساسات وينبهها لكى لاتتبلد بحكم الألف والعادة اللذين يبلدان الحس بهذه الأمور .

ولكى نثبت هذه الحقيقة فإننا نأتى بنماذج قليلة لهذه التوقيعات المتعددة فى القرآن :

« الروح .. تلك الطاقة المجهولة التى لانعرف كنهها ولاطريقة عملها .. »
« وهى مهتدية إلى الله بفطرتها . إنها من روح الله التى أودعها قبضة الطين » :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (1)

(1) ص: ٧٢

ومن ثم فهى بذاتها تهتدى إلى خالقها ، وتتصل به على طريقتها . تهتدى إليه كما يهتدى كل شيء من خلق الله بفطرته ، دون كد ولا تعب ولا جهد فى الاهتداء .

﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (١)

ومع ذلك فالانسان يضل.. يضل حين تنحرف فطرته ويصيبها المرض.. يضل ، ولا يستمد منه، ولا يلجأ فلا يهتدى إلى الله، ولا يصل بروحه إليه إلى حماه.

« على أنه حتى حين يضل ، حين تتغيش روحه فلاتستطيع أن تشف ، حين يغضيها ركام الشهوات فيحجب عنها النور ، حتى حينئذ تظل بقية من الفطرة — برغم ضلالها — تتجه إلى خالقها كما تتجه العين الكليلة إلى الضوء ، لاتراه كله ، ولكنها لاتعمى عنه .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (٢)

« ومهمة العقيدة هى مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها . مهمتها أن تساعد الفطرة فى الاهتداء إلى الله . الاهتداء الذى هو كامن فى كيانها ولو حجبتها عنه الأمراض .

« مهمتها أن تطلق الروح من أسرها لكى ترى الله » .

طريقة الاسلام فى تربية الروح هى أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله ، فى كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور .

ويستخدم لذلك وسائل شتى .

فهو من ناحية يثير حساسية القلب بيد الله المبدعة فى صفحة الكون ، لتحس دائما بوجود الله ، وقدرته المطلقة التى ليست لها حدود .

(١) طه: ٥٠ (٢) الزمر: ٣٨

ومن ناحية يثير حساسية القلب برقابة الله الدائمة عليه .

فهو مع الانسان أينما كان ، وهو مطلع على فؤاده ، عالم بكل أسراره ، وبماهو أخفى من الأسرار .

ومن ناحية يثير فى القلب وجدان التقوى والخشية الدائمة لله ، ومراقبته فى كل عمل وكل فكرة وكل شعور .

ومن ناحية يثير فيه الحب لله ، والتطلع الدائم إلى رضاه .

ومن ناحية يبعث فيه الطمأنينة إلى الله فى السراء والضراء ، وتقبل قدره بالتسليم والرضا ، والهدف فى النهاية واحد هو : وصل القلب البشرى بالله .

***

وهذه بعض التوقيعات على وتر الاحساس بقدرة الله المطلقة فى شتى مجالاتها :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ (1)

---

(1) النحل: ٧٨ — ٨١

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (١)

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

وهذه هى بعض التوقيعات على وتر الاحساس بروعة الكون :

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣)

---

(١) البقرة: ٢٥٥ (٢) الانعام: ٥٩ — ٦٠ (٣) البقرة: ١٦٤

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (١)

وتلك بعض التوقيعات على وتر الاحساس بالحياة والموت :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ (٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ

(١) النحل: ١٠ — ١٧ (٢) الروم: ١٩ — ٢٠

مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (1)

﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾ (2)

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ (3)

﴿ خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾ (4)

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾ (5)

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ ﴾ (6)

وتلك توقيعات على وتر الاحساس بحدوث الأشياء :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (7)

﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (8)

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (9)

---

(1) الحج: ٥ — (2) لقمان: ٣٤ — (3) الزمر: ٤٢

(4) الملك: ٢ — (5) النساء: ٨٧ — (6) آل عمران: ٥٤

(7) آل عمران: ٢٦ — (8) مريم: ٣٥ — (9) التوبه: ٥١

﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[1]

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[2]

وهكذا .. من التوجيهات التى يفيض بها كتاب الله الكريم .

وهذه التوقيعات كلها ، وغيرها من التوجيهات القرآنية تؤدى وتهدف إلى توجيه القلب البشرى إلى الله الحق ، الخالق المدبر ، المنشىء المريد ..

إنها تبين مدى قدرة الخالق العظيم الذى لا إله إلا هو خالق الكون والناس أجمعين .. رب السموات والأرض .. رب العالمين .

إن من يتأمل فى آيات الله البينات ، وفى كلماته التى لاتنفد أبدا :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى ﴾[3]

يجد نفسه يتجه إلى الله .. يهتدى إليه فيؤمن بوجوده ووحدانيته وقدرته المطلقة .. يؤمن بالله الواحد القهار الكامل الحى القيوم المالك لكل شىء . والقادر على كل شىء .. وهذا الاهتداء إليه سبحانه وتعالى هو الدعامة الأولية

---

(١) البقرة: ٢٤٥ (٢) النمل: ٦٢ ــ ٦٤
(٣) الكهف: ١٠٩

والحقيقة الأساسية والركيزة الأصلية الثابتة لخطوات الاسلام مع الفطرة البشرية .. بل أنه هو فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ..

فكل انسان متجه إلى الله بطبيعته .. مهتد إليه بفطرته ..

***

ثم يخطو الاسلام مع الفطرة البشرية خطوة أخرى ، فيلتقى بالطبيعة المزدوجة والكيان الموحد فى الانسان .

يلتقى بهذا الكيان الموحد المشتمل على طبيعة مزدوجة ، فيرسم له منهجا مزدوج الطبيعة موحد الاتجاه .

فهناك جسم وروح . ونشاط للجسم ونشاط للروح ولكنهما فى النهاية يلتقيان .

وهناك دنيا وآخرة . وعمل للدنيا وعمل للآخرة . ولكنهما طريق واحد لايفترق فيه العمل عن العبادة ولا العبادة عن العمل ، مادام كلاهما موجها إلى الله .

وحيث تضل النظم الأخرى كلها ، فتفصل بين نشاط الجسم ونشاط الروح وتجعل لكل منهما دستورا ومنهجا مختلفا عن الآخر .. وتفصل بين الدنيا والآخرة ، فتجعل اتجاه كل منهما مخالفا لاتجاه الأخرى .. فإن الاسلام يلتقى مع الفطرة على طبيعتها ، فلايفصل بين أجزاء الكيان المترابط ، ويراعى — فى الوقت ذاته — مافيه من ازدواج .

ويعيش الانسان حياته ، ويعيش للآخرة . ولكن الاسلام يوجهه على أنهما طريق واحد وبطريقة أخرى .. ليست هناك أعمال خاصة بالدنيا ينعزل فيها الانسان عن الآخرة ، وليست هناك أعمال خاصة بالآخرة ينعزل فيها الانسان عن الدنيا .. وإنما العمل الواحد — وكل عمل — هو الدنيا والآخرة فى آن واحد .. فتلتقى الدنيا والآخرة فى كيانه المزدوج الطبيعة الموحد الاتجاه ..

يقول الله تعالى فى كتابه :

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ (١)

ويقول :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ (٢)

***

ثم يخطو الاسلام مع الفطرة خطوة أخرى ، فيلتقى بالخطوط المتقابلة فى النفس البشرية . ولكن كيف ذلك ؟

« مزية الاسلام — فى مسايرته للفطرة — أنه لايترك وترا من أوتار النفس لايوقع عليه ، ثم هو لايوقع على وتر أكثر من طاقته ، أو يبخسه قدره فلايوقع عليه مايستحق من نغمات ! وبذلك يشمل الكيان الانسانى كله ، وفوق ذلك يحدث التوازن فى داخل النفس بشدها إلى أوتارها جميعا فلاتميل من هنا ولاتميل من هناك ، والتوقيع على أوتارها جميعا فلاتنطق من جانب وتظل فى الجانب الآخر صماء » (٣)

يوقع الاسلام على خطى الخوف والرجاء — أكبر الخطوط المتقابلة فى النفس البشرية — فينفى عنهما أولا كل خوف خاطىء وكل رجاء منحرف ثم يوقع عليهما نغمات الخوف والرجاء الصالحين لكيان الانسان : الخوف من الله ومما يخوف به الله .. والرجاء فى الله الذى يملك وحده كل شىء فى هذا الوجود .

---

(١) القصص: ٧٧

(٢) الأعراف: ٣٢

(٣) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية ص ١٥٥

وفى أثناء هذه التوقيعات يكون قد بنى الكيان الصالح للنفس البشرية !

فهو إذ ينفى عنها الخوف الخاطىء من قوى الأرض البشرية أو المادية أو المعنوية .. والرجاء الخاطىء فى قوى الأرض الزائلة أو متاعها الزائل أو قيمتها الزائفة .. يكون قد أعطاها قوة ذاتية عظمى ، قوة تتغلب بها على كل قوى الأرض ومغريات الأرض ..

وإذ يوقع عليها الخوف الصائب من الله ومن غضب الله وعذابه ، والرجاء الصائب فى الله ومرضاته وثوابه ، يكون قد ربطها بالعروة الوثقى ومنع عنها الميل والانحراف .

وفى الوقت ذاته يكون قد رسم لها قيمها وأهدافها وخطط لها نشاطها السوى، وهو يفصل لها مايحبه الله ومايكرهه ، ومايرضى عنه ومايأباه من الأقول والأفعال والمشاعر والأفكار .

ويوقع على خطى الحب والكره ، فينفى عنهما كل حب باطل ، وكل كره منحرف ، ويوقع عليهما نغمات الحب والكره الصالحين لكيان الانسان .

فكل حب للشر أو الطغيان أو الفاحشة أو الانحراف فهو حب باطل ينبغى أن تتطهر منه النفس . وكل كره للخير وللناس وللأحياء ولماأمر الله به من أمر فهو كره باطل لاينبغى أن تشتمل عليه نفس سوية . والحب الصحيح ينبغى أن يكون حبا لله وللكون وللحياة والأحياء وللأنسانية وللقيم الفاضلة التى رسمها الله . والكره الصحيح ينبغى أن يكون للشر والطغيان والانحراف .

وهو إذ يوقع عليهما أنغامهما الصحيحة يكون كذلك قد بنى — من جانب آخر — الكيان الصالح للنفس البشرية .

فحين تتوجه طاقتى الحب والكره — الفطرية — إلى مجالها الصحيح تكون النفس قد اعتدلت ، ويكون سلوكها العملى والشعورى قد استقام على النهج ، وأصبحت النفس خيرة كما ينبغى للانسان الكريم .

ويستغل الطاقة الحسية والطاقة المعنوية فيعطى كلا منهما غذاءه الحق —

يعطى الطاقة الحسية مجالها الطبيعى من طعام وشراب .. إلخ ، ويعطى الطاقة المعنوية مجالها من عقيدة وفنون وعلم وتفكير .

ثم يراعى مابين الطاقتين من اتصال فطرى ، فيربط مابين النشاط الحسى والنشاط المعنوى ، ويوحد بينهما فى الاتجاه .

ويستغل الايمان بماتدركه الحواس والإيمان بالغيب .. فيعطى الكون المادى حسابه الكامل ، وينمى العقيدة فى الله — الذى يؤمن به الانسان بالغيب — تنمية كاملة تجعلها تسيطر على كل نشاط الانسان .

ويستغل طاقة الواقع وطاقة الخيال .. فيطلق النشاط البشرى فى عالم الواقع يعمل وينشىء ويبنى ويعمر ، ويقيم النظم المادية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والروحية .. ويطلق الخيال يتخيل الكمال المطلق فى الله ، ويتملى الجمال ، ومشاهد اليوم الآخر ، والثواب والعقاب .. ويربط ذلك كله ربطا محكما كما هو مرتبط فى كيان الانسان فينطلق الانسان فى نشاطه الأرضى المعمر ، وفى حسه من الجانب الآخر ماينبغى أن يكون عليه هذا النشاط ، فيتكامل بذلك نشاطه ، وتكون هذه هى الخلافة الحقة عن الله فى الأرض .

ويستغل الالتزام والتحرر .. فيفرض على الانسان — من جانب الالتزام — مافيه صلاح حياته ، ومالابد من فرضه لتستقيم الحياة فى مستواها الأدنى ، ويترك لجانب التحرر — أو التطوع — أن يعمل حراً فيما يزيد على الحد الأدنى المفروض ، ومايرفع الحياة إلى مستواها الأعلى المطلوب :

﴿ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ [1]

ويستغل السلبية والإيجابية .. فينشىء سلبية صحيحة إزاء الله ، الذى يملك — وحده — كل أمر فى هذا الوجود ، وإيجابية صحيحة إزاء كل قوى الكون .

---

(١) البقرة: ١٨٤

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [1]

ويجعل هذه الايجابية الكاملة إزاء الكون وقواه مستمدة من السلبية الكاملة إزاء الله .

ويستغل النزعة الفردية والنزعة الجماعية ، فيتعامل تعاملا مباشرا مع « الفرد » الانسانى : يخاطبه ، ويربط بينه وبين الله رباطا ذاتيا فرديا محكما ، ويشعره كأنما هو وحده فى الكون والله يرعاه فى فرديته الكاملة تلك ، ثم يتعامل معه على أنه « مجتمع » إنسانى مسئول عن إقامة حكم صالح وحياة رشيدة ، ومسئول عن تقدير القيم والفضائل ومقاومة الشر والطغيان والانحراف . وبذلك يجمع نزعيته معانى هذا الرباط مع الله .

***

ثم يخطو الاسلام مع الفطرة الانسانية خطوة أخرى ، فيعالج الانسان من حيث هو دوافع وضوابط كل منهما قائم وكل منهما أصيل .

فهو يعترف بدوافعه الفطرية كلها بل وينميها ويقويها ويجعلها مطلوبة جميعا .

وفى الوقت ذاته ينمى الضوابط جميعا ، ويستغل طاقاتها الكاملة ، ويربطها بالعقيدة فى الله ، لكى يجعل انطلاق الدوافع الفطرية بماينبغى للانسان الذى كرمه الله . ذلك أنه لن يستطيع القيام بالخلافة عن الله فى الأرض إذا انطلقت دوافعه — القوية — بلاضابط ولادليل .. إنها عندئذ تصبح قوية مدمرة .. مدمرة للفرد الذى تتملكه وللمجتمع الذى تنطلق فيه .

ولكن الاسلام لايجور على هذه ولاتلك ، ولاينمى إحداهما على حساب الأخرى .

ولاينمى الدوافع بالصورة التى تجعلها صعبة الضبط ، ولاينمى الضوابط بالصورة التى تجعلها قوة كابتة تغل النشاط الانسانى عن الانطلاق .

(١) الجاثية : ١٢

وإنما ينميهما معا، فيضمن قيام كل منهما بمهمتها، ويضمن كذلك بينهما التوازن والاعتدال.

ومع ذلك كله يراعى الاسلام مافى الفطرة البشرية من الضعف إزاء الشهوات — رغم وجود الضوابط الفطرية، ورغم العمل على تقويتها — فيعترف للانسان بضعفه :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (١)

ويعامل على أساس هذا الضعف، فيغفر له زلاته مادام لايصر عليها :

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (٢)

مما سبق عرضه يتضح لنا ما يلى :

١ — أن الله أودع فى الفطرة أن تبحث عنه، وتتجه إليه، وتتعبده :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾

ولسنا نعرف كيف تم ذلك الأشهاد، ولكننا نلاحظ أشياء تدلنا على أن الفطرة تتيقظ، فتتجه باحثة عن الله الذى أشهدت عليه، وقد تهتدى فتعرفه على حقيقته وتعبده حق عبادته وقد تضل فتتصوره على غير حقيقته وتتصور معه

(١) النساء: ٢٨ (٢) آل عمران: ١٣٤ — ١٣٦

آلهة أخرى ثم تعبده على غير ماينبغى لله سبحانه من إخلاص العبودية والطاعة له ، فتشرك معه فى العبادة تلك الآلهة الأخرى .. ولكنها فى الحالتين تبحث عن الله ، وتتوجه إليه ، وتمارس لونا من العبودية له .

٢ — أن الله سبحانه وتعالى أعد فى القلب البشرى أوتارا لتتلقى إيقاعات معينة فتهتز ، فإذا اهتزت انطلقت الفطرة تبحث عن الله . وقد تهتدى فى بحثها وقد تضل .. ولكنها فى كل حال تنطلق إذا اهتزت الأوتار ، والإيقاعات التى تهزها لاتنقطع ليلا أو نهارا وهى :

(أ) **الكون** أعظم إيقاع على أوتار القلب البشرى .. الكون بضخامته الهائلة .. بدقته المعجزة .. كلاهما وقع هائل لايمكن أن ينجو منه قلب إنسان .

(ب) **الموت والحياة** كذلك من الإيقاعات المؤثرة فى أوتار القلب البشرى .. هذه الظاهرة .. ظاهرة الموت والحياة عميقة الأثر جدا في حياة البشر ومشاعرهم لاينجو منها حتى أبلدهم حسا ، ولايمكن أن تمر فى حياتهم بغير اهتزاز يطول أو يقصر ثم لايمكن أن تمر دون أن توقظ فى حسهم تساؤلات عماوراء هذه الظاهرة العميقة التأثير : كيف تحدث الحياة ؟ تلقائية ؟ وكيف تكون تلقائية ؟ أليس لابد لها من موجد يمنح الحياة ؟

ولماذا تتوقف ؟ ولماذا يحدث الموت ؟ لماذا لاتعيش الأحياء إلى الأبد محتفظة بكل حيويتها ؟

وماذا وراء الموت ؟ هل هى النهاية ؟ ألا تعود الحياة إلى الكائنات أبدا .. فى أية صورة من الصور ؟

تلك التساؤلات التى لاينجو من وقعها الكائن البشرى ، هى إيقاعات مؤثرة فى أوتار القلب ، تبعثه يبحث عن الخالد المحيى المميت الذى يمنح الحياة وأخذ الحياة .. ثم يهتدى فيعرف الله على حقيقته أو يضل فيتصوره قوة من القوى أو شيئا من الأشياء .

(جـ) الأحداث الجارية التى لاتكف عن الحدوث والتتابع هى أيضا ذات

إيقاعات على أوتار القلب البشرى الذى يتساءل : كيف تحدث الأحداث ؟ ماذا وراءها هل يحكمها تدبير ، ومن صاحب التدبير ؟ وماسر التدبير وماحكمته ؟

تساؤلات يطرحها العقل الانسانى ويتفاعل بها القلب البشرى ثم يهتدى إلى الله الحق ، أو يضل فى التيه ..

(د) عجز الانسان الدائم يجعله يلجأ إلى التفكير فى القدرة التى لايعجزها شيء .. من وراء هذا الكون الهائل الذى لايقدر هو على شيء منه .. عندئذ ينطلق يبحث عن تلك القدرة القادرة فيهتدى أو يمعن فى الضلال البعيد .

(هـ) الرغبة فى استكناه الغيب رغبة جادة ملحة لاينجو منها بشر فى الأرض ، والعجز عن استكناه الغيب أمر لامفر من الشعور به فى القلب البشرى . إنه ليس عجزا عن استكناه الغد البعيد وحده ولا الغد القريب وحده .. بل هو عجز عن استكناه مايحدث بعد ساعة واحدة من الزمان .. بل بعد لحظة .. بل فى هذه اللحظة التى أطل جزء منها من عالم الغيب ، وبقيتها مغلفة بالأستار .

ويعود الانسان من رحلته الملهوفة وراء الغيب ، وعجزه الكامل عن استكناهه .. يعود إلى الله المحيط بهذا الغيب المطلع على كل خفاياه سواء عرف الله على حقيقته أم ضل عنه إلى سواه ..

تلك أوتار فطرية فى القلب البشرى ، أودعها الله فى الفطرة ليتلقى إيقاعات الكون والحياة والوجود لتهتز بماتتلقى من إيقاعات فتنطلق تبحث عن الله .. إنها موحيات العقيدة فى القلب البشرى .

والقرآن وهو يعرف الناس بالله يوقع على ذات الأوتار المودعة فى الفطرة ليهزها فتستيقظ ويحركها فتنفعل وفى لحظة انفعالها يقول لها : أنه الله ثم يقول لها :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ ﴾

وغير ذلك من الآيات القرآنية والكلمات الربانية التى تهدى إلى الله وتقود إلى دين الله وتعبر عن فطرة الله التى فطر الناس عليها .

٣ — إن بحث الانسان عن الخالق يقوده إلى الدين ، والدين شيء من صميم الفطرة ينمو مع غيرها نموا طبيعيا دون تدخل من أحد ، والدين معناه الخضوع لله خالق الخلق والاستسلام له والعمل على مرضاته وهذا مايعنيه الاسلام .

إذن الاسلام هو الدين، ومن هنا جاء الأمر الالهى لبنى آدم لاقامة وجه الدين.. الدين الذى اصطفاه الله عز وجل وأرتضاه لعباده وهو الاسلام.

٤ — والدين الذى فرضه الله يلتقى بالفطرة التقاءا كاملا وذلك من خلال :

(أ) الاحساس بقوة الخالق المطلقة ، والاحساس بروعة الكون ، والاحساس بالموت والحياة ، والاحساس بحدوث الأشياء ، وهذه الاحساسات جميعها توجه الانسان إلى العقيدة . ومهمة العقيدة مساندة الفطرة وتوجيهها وجهتها تساعد الفطرة فى الاهتداء إلى الله ذلك الاهتداء الكامن فى كيانها .

(ب) الطبيعة المزدوجة والكيان الموحد فى الانسان .

(جـ) الخطوط المتقابلة فى النفس الانسانية مثل : الخوف والرجاء ، الحب والكره ، الواقع والخيال ، الالتزام والتحرر ، السلبية والايجابية ، الفردية والجماعية وغيرها .

(د) معالجة الانسان من حيث هو دوافع وضوابط .

إذن يتمشى الاسلام ويلتقى مع الفطرة البشرية فى كيانها الشامل المترابط إذ يجعل دستوره المفصل فى القرآن وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام — شاملا العقيدة والواقع للحياة الفردية بجميع تفصيلاتها والحياة الجماعية فى كل نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والروحية .. كلها تنبع من منبع واحد ، وتتجه وجهة واحدة فلايختص بالحياة الواقعية دستور ، وبالحياة التعبدية دستور ..

ولايختص بالأحوال الشخصية قانون ، وبالأحوال العامة قانون .. وإنما هو دستور واحد يشمل هؤلاء جميعا ، وتصدر عنه التشريعات جميعها ، فلايتفرق الانسان مزقا بين واقعه وخياله .. بين فرديته وجماعيته .. بين أخلاقه وسلوكه .. بين دنياه وآخرته .. إنما يكون شخصا واحدا فى هؤلاء جميعا ، يتعامل مع القوى كلها بكيانه المجتمع المترابط ، ويسلك سلوكه كله بذلك الكيان .

إن الدين والفطرة مرتبطان ارتباطا وثيقا لاينفصلان ...
فدين الله هو التوحيد له سبحانه وتعالى والاسلام له عز وجل ...
وفطرة الله هى الشهود بربوبيته ووحدانيته تعالى والاسلام له عز وجل ...

فكل إنسان مفطور على عبادة الله والاتجاه إلى دينه ، ولو خلا الانسان ومحا من ذهنه كل مايتعلق بالمجتمع الذى يعيش فيه ، والأفراد الذين يتعاملون معه ، وفكر بينه وبين نفسه فى كل ماخلقه الله ومن حوله .. لو تخلص الانسان من كل مايشغل تفكيره ، وابتعد عن كل هوى أو شائب يسيطر على كيانه ، وسما بنفسه وكيانه فى جو ملىء بالتفكر والتأمل والتدبر لوجد هذا الانسان أنه يعود بطبيعته دون ضغط خارجى ، ودون تأثير من أحد إلى فطرته الأولى الفطرة الربانية التى أودعها الله فى خلقه والتى تشهد وتقر بربوبية الله .. ووحدانية الله فيخر راكعا ساجدا منيبا إلى الله مهتديا إلى الله .. متجها إلى دين الله الذى يكمن فى الخضوع والاسلام لله تبارك وتعالى .

وبذلك يكون الدين من الفطرة بل هو الفطرة ذاتها التى فطر الله الناس عليها ، وهذا هو خلق الله ، ولاتبديل لخلقه تعالى .

فدين الله هو الفطرة وهو الاسلام
وفطرة الله هى الدين وهى الاسلام
إذن دين الفطرة هو الاسلام

والاسلام هو الدستور والمنهج الذى نهجه الله عز وجل لخلقه ، والحياة التى سنها الرحمن لعباده ، والشريعة التى شرعها الحق للوجود كله .

الفصل الثالث

شريعة الوجود

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

خلق الله عز وجل الوجود احساناً عميماً .. وفضلا عظيماً ..
وسبحانه شرع له منهاجاً قويماً .. وصراطاً مستقيماً ..
فكانت العقيدة الالهية .. والشريعة الربانية ..
عقيدة التوحيد .. وشريعة الاسلام ..

***

فلا شرعية بغير شريعة ..
ولا شريعة بغير عقيدة ..
ولا عقيدة بغير دين ..

ولادين بغير إله حى قادر قهار وهاب كامل تؤمن به .. وبوحدانيته وربوبيته ..

فتهتدى إليه وتطمئن إليه فتنتجه إليه اتجاها فطريا .. وتسلم إليه إسلام الوجه والقلب والكيان كله .

***

فكل منا يولد وفى وجدانه ميل فطرى واتجاه فطرى إلى الله . وإحساس فطرى بأن هناك قوة خارقة خفية وراء هذا الكون العظيم .. وقدرة هائلة وراء وفوق هذا التدبير المحكم ، والخلق المنظم ، والتقدير المرتب .. إله عظيم تناجيه ، وتدعوه ، وتشكو له ، وتشكره ، وتسبحه ، ولا تشرك به أبدا .. هو الله الواحد .. القهار .. القادر .. المالك لكل شىء .. المهيمن على كل شىء .. خالق الكون والناس أجمعين .. الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى .. الأول والآخر .. الظاهر والباطن .. الحى القيوم .. لاتأخذه سنة ولانوم .. له مافى السموات والأرض .. وهو على كل شىء قدير .

***

سجدات الذرات والكائنات ..
خشعت القلوب والأجساد ..
استسلمت العباد لرب العباد ..
ففطرت على فطرة الخالق الله الواحد الذى لا إله إلا هو وحده لاشريك له .
فطرة التوحيد .. لرب العالمين
فطرة الاسلام .. لخالق الناس أجمعين
لاتبديل لخلق الله .. والحمد لله رب العالمين .

***

لقدم رأينا فى الفصلين السابقين كيف أن الانسان اهتدى إلى فطرة الله عز وجل كما اهتدى إليها كل شىء خلقه الله سبحانه وتعالى ثم رأينا وعرفنا أن الفطرة هى الاسلام .. هى التوحيد لله عز وجل وحده لاشريك له ثم أخيرا عرفنا أن الاسلام يتمشى مع الفطرة البشرية فى كيانها الشامل المترابط وبذلك يكون الدين من الفطرة .. ودين الفطرة هو الاسلام .

والاسلام هو دين الله الذى اختاره سبحانه وارتضاه لعباده وهو دستور واحد مفصل فى القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام شاملا العقيدة والشريعة .. وهذا ماسنوضحه فى هذا الفصل الذى نتبين منه أن الاسلام هو فطرة الخلق وشريعة الوجود .

***

كانت الغرائز الحيوانية ، والطباع الوحشية قبيل الدعوة الاسلامية هى صاحبة السلطان والسيطرة على جميع التصرفات فردية كانت أم اجتماعية ، وبذلك كانت الظاهرة العامة التى تنظم الوجود ، هى الطغيان فى كل شىء ، طغيان يفتك به القوى الضعيف ، ويسلب القادر حق العاجز ، ويستنزف الغالب دم المغلوب .

لقد كان فى العالم ركام هائل من العقائد والتصورات والفلسفات والأساطير ، والأفكار والأوهام ، والشعائر والتقاليد ، والأوضاع والأحوال .. يختلط فيها الحق بالباطل ، والصحيح بالزائف ، والدين بالخرافة ، والفلسفة بالأسطورة .. والضمير البشرى ــ تحت هذا الركام الهائل يتخبط فى ظلمات وظنون ، لايستقر منها على يقين ، والحياة الانسانية ــ بتأثير هذا الركام الهائل ــ تتخبط فى فساد وانحلال ، وفى ظلم وذل ، وفى شقاء وتعاسة .

وكان التيه الذى لادليل فيه ، ولاهدى ولانور ، ولاقرار ولايقين .. هو ذلك التيه الذى يحيط بتصور البشرية لإلهها وصفاته ، وعلاقته بالكون وعلاقة الكون به ، وحقيقة الانسان ، ومركزه فى هذا الكون ، وغاية وجوده الانسانى ، ومنهج تحقيقه لهذه الغاية ، ونوع الصلة بين الله والانسان على وجه الخصوص .. ومن هذا التيه ومن ذلك الركام كان ينبعث الشر كله فى الحياة الانسانية ، وفى الأنظمة التى تقوم عليها[1] .

وفى هذا الجو القاتم الذى ذبل فيه الروح الانسانى ، وخفت صوته ،

(١) سيد قطب: خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ص ٢٢

وضعف حسه بزغت شمس الاسلام ، وانبعث نورها على الانسان من أفق الحياة العليا ، فأيقظ روحه ، وأحيا ضميره . وأرشده إلى الخير والهدى ، وأدرك للانسانية — وقد رفع الله مستواها — حقا يجب أن تمكن منه ، وتنعم به ، لتصل عن طريقه إلى الغاية التى طلبت منها ، وذللت لها تذليلا ، بزغت شمس الاسلام وأذابت حرارتها رائحة الظلم وعفونة الجبروت التى انعقدت على الروح الانسانى فأفقدته الوعى وسلبته مواهبه التى بها كون ، والتى كان بها هو المسئول عن فساد الحياة وتأخرها .. بزغت شمس الاسلام وأضاء نورها الأرض ومافيها وأعادت الحياة لمن فيها .. بزغت شمس الحياة المشرقة .. شمس الإيمان والحب والسلام .. الشمس الطيبة التى تبعث الهدوء وتحقق الأمن والاستقرار .. فأشرق القلب الانسانى وأخذ يقبل على الدين الجديد بكل حب واطمئنان وسعادة .. الدين الخالد .. دين الاسلام .

والاسلام هو دين الله الذى أوصى بتعاليمه فى أصوله وشرائعه إلى النبى محمد ﷺ ، وكلفه بتبليغه للناس كافة ودعوتهم إليه .

وقد تلقى فيه محمد ﷺ الأصل الجامع للاسلام فى عقائده وتشريعه ، وهو القرآن الكريم ، فبلغه كما تلقاه ، وبين أمر الله وإرشاده مجملة ، وطبق بالعمل نصوصه ، ثم تلقاه عنه الناس جيلا بعد جيل ، كما تلقاه هو عن ربه ، حتى وصل إلينا — كما نزل — متواترا لاريب فيه . وكان القرآن عند الله وعند المسلمين ، المصدر الأول فى تعرف التعاليم الأساسية للاسلام ، ومن القرآن عرف أن الاسلام له شعبتان أساسيتان ، لاتوجد حقيقته ، ولايتحقق معناه إلا إذا أخذت الشعبتان حظهما من التحقق والوجود فى عقل الانسان وقلبه وحياته . وهاتان الشعبتان هما : العقيدة والشريعة[1] .

(أ) العقيـــدة :

والعقيدة هى الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان به ، أولا وقبل كل شىء إيمانا لايرقى إليه شك ، ولاتؤثر فيه شبهة ، ومن طبيعتها : تضافر النصوص

(١) الامام الاكبر: محمود شلتوت: الاسلام عقيدة وشريعة: ص ٩

الواضحة على تقريرها ، وإجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأت الدعوة مع ما حدث بينهم من اختلاف بعد ذلك فيما وراءها، وهى أول ما دعا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وطلب من الناس الإيمان به فى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ، وهى دعوة كل رسول جاء من قبل الله ، كما دل على ذلك القرآن فى حديثه عن الأنبياء والمرسلين .

(ب) الشـريعة :

والشريعة هى النظم التى شرعها الله أو شرع أصولها ليأخذ الانسان بها نفسه فى علاقته بربه وسبيلها أداء الواجبات الدينية كالصلاة والصوم ... إلخ ، وعلاقته بأخيه المسلم وسبيلها تبادل المحبة والتناصر على الدوام والأحكام الخاصة بتكوين الأسرة والميراث .. وغيرها ، وعلاقته بأخيه الانسان وسبيلها التعاون فى تقدم الحياة العامة والسلم العام ، وعلاقته بالكون وسبيلها حرية البحث والنظر فى الكائنات واستخدام آثارها فى رقى الانسان ، وعلاقته بالحياة وسبيلها التمتع بلذائذ الحياة الحلال دون إسراف أو تقشف .

وقد عبر القرآن عن العقيدة « بالإيمان » وعن الشريعة « بالعمل الصالح » وجاء ذلك فى كثير من آياته الصريحة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ (1)

﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (2)

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ (3)

---

(1) الكهف: ١٠٧، ١٠٨ (2) النحل: ٩٧ (3) سورة العصر

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١)

ومن هنا لم يكن الاسلام عقيدة فقط ، ولم تكن مهمته تنظيم العلاقة بين الانسان وربه فقط ، وإنما كان عقيدة ، وكان شريعة توجه الانسان إلى جميع نواحى الخير فى الحياة .

والعقيدة فى الوضع الاسلامى هى الأصل الذى تبنى عليه الشريعة ، والشريعة أثر تستتبعه العقيدة ، ومن ثم فلاوجود للشريعة فى الاسلام إلا بوجود العقيدة ، كما لاازدهار للشريعة إلا فى ظل العقيدة .

اذن فالاسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة ، بحيث لاتنفرد إحداهما عن الأخرى ، على أن تكون العقيدة أصلا يدفع إلى الشريعة ، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة ، وقد كان هذا التعليق طريق النجاة والفوز ، بماأعد الله لعباده المؤمنين .

وعليه فمن آمن بالعقيدة ، وألغى الشريعة ، أو أخذ بالشريعة وأهدر العقيدة ، لايكون مسلما عند الله ، ولا سالكا فى حكم الاسلام بسبيل النجاة .

هذا هو الاسلام ، ويستوى فيه — بالنظر إلى عقيدته وشريعته — جميع بنى الانسان ، تطالب به جميع الأجناس والطوائف ، دون نظر إلى مابينهم من فروق شخصية كذكورة وأنوثة ، وبياض وسواد ، أو فروق اجتماعية كرئاسة ومرؤسيه ، وحاكميه ومحكوميه ، وغنى وفقر . ودرجات القرب من الله تتبع درجات القوة فى الإيمان ، والاستقامة على الشريعة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (٢)

---

(١) الاحقاف: ١٣ .

(٢) الحجرات: ١٣

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [1]

والعقائد الأساسية التى طلب الاسلام الإيمان بها ، وكانت العنصر الأول من عناصره هى : [2]

أولا : الايمان بوجود الله ووحدانيته .

ثانيا : الايمان بالملائكة « سفراء الوحى بين الله ورسله » .

ثالثا : الايمان بجميع الرسل .

رابعا : الايمان بجميع الكتب السماوية « رسالات الله إلى خلقه » .

خامسا : الايمان باليوم الآخر .

وقد جعل الاسلام عنوان تحقق هذه العقائد عن الانسان الشهادة بأن الله واحد ، وأن محمداً رسوله ، وكانت تلك الشهادة هى المفتاح الذى يدخل به الانسان فى الاسلام وتجرى عليه أحكامه .

فالشهادة بوحدانية الله تتضمن كمال العقيدة فى الله من جهتى الربوبية « الخلق والتربية » والألوهية « العبادة » .

والشهادة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام تتضمن التصديق بكمال العقيدة فى الملائكة ، والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر ، وأصول الشريعة والأحكام :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [3]

---

(١) النساء: ١٢٣، ١٢٤

(٢) الامام محمود شلتوت: الاسلام عقيدة وشريعة، ص ١٧

(٣) البقرة: ٢٨

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[1]

هذه هى العقائد الأساسية فى الاسلام ، وهو يقرر أنها أساس كل دين إلهى ، وإذا فالأديان التى لاتبنى عليها فى — حكمه — أديان باطلة ، لايقام عليها وزن ، فالاسلام ينكر على الملحدين الذين لم يؤمنوا بالإله الخالق إلحادهم ، وعلى المشركين الذين يعبدون مع الله إلها غيره شركهم وينكر على الذين لايؤمنون بالملائكة والكتب واليوم الآخر عدم إيمانهم ويدعوهم جميعا إلى الإيمان بتلك العقائد .

لقد قلنا فيماسبق أن القرآن — وهو الأصل الجامع لحقيقة الاسلام — أرشد إلى أن الاسلام عقيدة وشريعة ، وبينا العقائد التى طلب الاسلام الإيمان بها ، وكانت فى حكمة الحد الفاصل بين الاسلام والكفر .

وأن الشريعة مكملة للعقيدة .. فالعقيدة إيمان .. والشريعة عمل ولابد من اقتران الاثنان ببعضهما حتى يكتمل إسلام الانسان ويدخل فى الدين الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى له .

والشريعة نظم وأحكام شرعها الله ، أو شرع أصولها وكلف المسلمين إياها ، ليأخذوا أنفسهم بها فى علاقتهم بالله ، وعلاقتهم بالناس ، وأنها على كثرتها ترجع إلى ناحيتين رئيسيتين :

أولا : ناحية العمل الذى يتقرب به المسلمون إلى ربهم ، ويستحضرون به عظمته ويكون عنوانا على صدقهم فى الايمان به ، ومراقبته ، والتوجه إليه ، وهذه الناحية المعروفة فى الاسلام باسم العبادات وهى :

الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج . ونظرا إلى أن المقصود من هذه العبادات الأربع مضمومة إلى الإقرار بوحدانية الله ورسالة محمد هو

---

(١) البقرة: ١٧٧

تطهير القلب ، وتزكية النفس ، وقوة مراقبة الله التى تبعث على امتثال أوامره ، والمحافظة على شرائعه فى جميع نواحيها ، وكانت هى العمد التى ينبى عليها الاسلام ، وفى ذلك يقول النبى ﷺ : بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

ثانيـــا : **ناحية العمل الذى يتخذه المسلمون سبيلا لحفظ مصالحهم** ، ودفع مضارهم ، فيمابينهم وبين أنفسهم ، وفيمابينهم وبين الناس ، على الوجه الذى يمنع المظالم وبه يسود الأمن والاطمئنان وهذه الناحية هى المعروفة فى الاسلام باسم « المعاملات » وتشمل :

ما يتعلق بالأسرة والميراث ، وما يتعلق بالأموال والمبادلات ، ومايتعلق بالعقوبات ، ومايتعلق بالنواحى الأخلاقية والعلاقات الانسانية والدولية ... إلخ .

هذه هى الشرائع المتمثلة فى النظم والأحكام ليتخذها المسلمون منهجا لهم فى حياتهم ونبراسا يضىء لهم الطريق فيتقربون إلى الله .. آملين فى الفوز برضاه .. طامعين فى أن يشملهم برحمته وعفوه ، وأن يدخلهم مع العباد الصالحين .

والشريعة الاسلامية .. هى الشريعة الكاملة المتكاملة .. الشريعة الشاملة .. ذلك لأنها شريعة الله ، وشريعة الله لاتتجزأ .. وهى إذ شملت الحياة كلها .. فإن تجزئتها خروج على الفطرة .. وخروج على الوحى .. يورث الفتنة ، والجاهلية ، ومحاداة الله ورسوله .. وبالتالى يورث خزى الدنيا وعذاب الآخرة[1] .

فالتشريع فى الاسلام تشريع شامل ..

إنه لايشرع للفرد دون الأسرة .. ولا للأسرة دون المجتمع ، ولا للمجتمع منعزلا عن غيره من المجتمعات .

---

(١) المستشار على جريشة. اركان الشرعية الاسلامية حدودها وآثارها — ص ١٢٠

إن تشريع الاسلام يشمل التشريع للفرد فى تعبده وصلته بربه ، وهذا مايفصله قسم « العبادات » فى الفقه الاسلامى .

ويشمل التشريع للفرد فى سلوكه الخاص والعام ، وهذا يشمل مايسمى « الحلال والحرام » أو الحظر والإباحة .

ويشمل التشريع مايتعلق بأحوال الأسرة من زواج وطلاق ونفقات ورضاع ، وميراث ، وولاية على النفس والمال ونحوها .

ويشمل التشريع للمجتمع فى علاقته المدنية والتجارية : ومايتصل بتبادل الأموال والمنافع من البيوع والإجارات والقروض والمداينات والرهن والحوال والكفالة والضمان وغيرها .

ويشمل التشريع ما يتصل بالجرائم وعقوباتها المقدرة شرعاً كالحدود والقصاص.

ويشمل التشريع الاسلامى مايتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين وواجب المحكومين نحو الحكام ، وتنظيم الصلة بين الطرفين ، مماعنيت به كتب السياسة الشرعية ، والأحكام السلطانية فى الفقه الاسلامى .

ويشمل التشريع الاسلامى ماينظم العلاقات الدولية فى السلم والحرب ، بين المسلمين وغيرهم .

ومن هنا لاتوجد ناحية من نواحى الحياة إلا دخل فيها التشريع الاسلامى آمرا أو ناهيا ، أو مخيرا .

وحسبنا أن أطول آية نزلت فى كتاب الله تعالى ، نزلت فى تنظيم شأن من الشئون المدنية ، وهو المداينة ، وكتابة الدين .

ويبدو شمول التشريع الاسلامى فى أمر آخر ، أو بعد آخر ، وهو النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة ، ومايؤثر فيها ، ومايتأثر بها ، والنظر إليها نظرة محيطة مستوعبة ، مبنية على معرفة النفس الانسانية ، وحقيقة دوافعها وتطلعاتها وأشواقها ، ومعرفة الحياة البشرية وتنوع احتياجاتها وتقلباتها ، وربط التشريع بالقيم

الدينية والأخلاقية ، بحيث يكون التشريع فى خدمتها وحمايتها ولايكون معولا لهدمها .

ومن عرف هذا جيدا ، استطاع أن يفهم موقف التشريع الاسلامى وروعته من قضايا كثيرة ، كالطلاق وتعدد الزوجات ، والميراث ، والربا ، والحدود والقصاص ، وغيرها . مماأثبت الدراسات المقارنة ، وأثبت الاستقرار التاريخى والواقعى فضل الاسلام فيه وتفوقه على كل تشريع سابق أو لاحق .

وعيب البشر أنهم ينظرون إلى الأمور والأشياء من جانب واحد ، غافلين عن جانب أو أكثر من جوانبها الأخرى ، والحقيقة أنهم لاذنب لهم فى هذا القصور ولاحيلة ، لأن النظرة المحيطة الشاملة التى تستوعب الشىء من جميع جوانبه ، وتعرف كل احتياجاته ، وتدرك كل احتمالاته وتوقعاته ، لايقدر عليها إلا رب البشر وخالق الكون :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (1)

مماسبق يتضح لنا أن الشريعة الاسلامية .. شريعة شاملة .. كاملة .. متكاملة لم تترك جانبا واحدا من جوانب الحياة إلا ووضعت حكمها عليه وحدّها فيه ومايجب عمله ومالايجب .. فهو شمول محيط بكل جوانب الحياة وبذلك يسير الانسان على بينة من أمره ، واستقرار على مصيره آمنا مطمئنا إلى منهج الله فى الأرض وإلى شريعة الوجود .

هذا الشمول الذى تميز به الاسلام ـــ بحيث استوعب الحياة كلها ، والانسان كله ، فى كل أطوار حياته ، وفى كل مجالات حياته ـــ يجب أن يقابله شمول مماثل من جانب التزام المسلمين أى الالتزام بهذا الاسلام كله فى شموله وعمومه وسعته . فلايجوز الأخذ بجانب من تعاليمه وأحكامه ، وطرح جانب آخر ، أو جوانب أخرى منها ، قصدا أو إهمالا ، لأنها « كل » لايتجزأ .

---

(1) الملك: ١٤

فلايجوز فى نظر الاسلام أخذ جانب العقيدة والايمان من تعاليمه وإغفال جانب العبادة أو الأخلاق ، كالذين قال : لاتضر مع الايمان معصية ، ولاتنفع مع الكفر طاعة . فإن عمل الصالحات مكمل للايمان ، وسياج له ، وثمرة لازمة للايمان الصادق كما بيّن ذلك القرآن والسنة :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾[1]

ولايجوز فى نظر الاسلام العناية بالعبادات والشعائر ، وإهمال جانب الأخلاق والفضائل ، لأن الفضائل الأخلاقية من شعب الايمان الحق ، وثمرة للعبادة الصحيحة « الايمان بضع وسبعون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان . »[2].

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[3]

وفى الصحيح :

« آية المنافق ثلاث وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

ولايجوز فى نظر الاسلام كذلك الاهتمام بالجانب الأخلاقى ، وإغفال الجانب التعبدى ، فإن الناس إنما خلقوا ليعرفوا الله ويعبدوه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[4]

وإنما يعبد الله تعالى بما شرع وفرض من شعائر وفرائض اعتبرها رسوله الأركان التى بنى عليها الاسلام . وأول خلق يجب أن يتحلى به المسلم هو الوفاء لله بعهده ،

(١) الانفال: ٢ — ٤
(٢) رواه البخارى
(٣) العنكبوت: ٤٥
(٤) الذاريات: ٥٦

وشكر نعمته ، وأداء أمانته ، وذلك بأداء حقه الذى افترضه على عباده من صلاة وزكاة وصيام وحج :

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (١)

ولايجوز فى نظر الاسلام الأخذ بكل ماذكر من عقيدة وعبادة وأخلاق ، مع إغفال جانب الشريعة الى نظم الله بها حياة الخلق ، وأنزل بها الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط . فلايحل لمن يؤمن بعدل الله تعالى ، وكمال علمه وحكمته وبره بخلقه ، أن يدع شرع الله عمدا ، ليحكم بشرائع البشر الممثلة لقصورهم وأهوائهم . ولهذا حذر الله ورسوله — وبالتالى كل حاكم من بعده . أن يدع « بعض ما أنزل الله » تأثرا بأهواء الآخرين وفتنتهم ، فإن من ترك حكم الله سقط لامحالة فى حكم الجاهلية ولاثالث لهما .

قال تعالى :

﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢)

إذن لابد أن تكون شريعة الله هى الحاكمة .. فشريعة الله هى العليا ، لاشىء معها ولاشىء فوقها .. فهى تشمل كل الحياة بغير تفرقة ولاتجزئة ..

فذاك .. مضمون الشرعية فى فقه الاسلام ..

يؤكد ذلك المضمون أن الوحى هو المصدر الأصيل وإن ماعداه تابع له أو

---

(١) آل عمران: ٩٧

(٢) المائدة: ٤٩، ٥٠

ملحق به .. وبالمصدر الأصيل يتأكد أن الله هو الشارع الوحيد وإذا جاز للبشر أن يشرع .. فإنه يشرع أخذا عن النبع الصافى .

وبالمضمون والمصدر .. بدت خصائص الشريعة الاسلامية ..

والحديث عن هذه الخصائص يحتاج أن يفرد له كتاب كامل وإنما نقتصر هنا على إرشادات مجملة لبعض هذه المزايا :[1]

الربانية :

فأول ماتمتاز به هذه الشريعة عن قوانين البشر جميعا هى أنها شريعة ربانية ، ونعنى بالربانية هنا أمرين :

أولهمـــا : ربانية المصدر .

ثانيهمـا : ربانية الوجهة .

أى أن أحكام الشريعة من صنع الله خالق الكون ، وهدفها هو ربط الناس بالله تبارك وتعالى .

ومن ثم نجد أحكام هذه الشريعة الربانية فى قلوب المسلمين من الاحترام والانقياد والطاعة لها ، مالايمكن أن يجده أى قانون آخر يضعه البشر بعضهم لبعض لأنها حكم الله :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[2]

الانسانية العالمية :

ومن مزايا الشريعة الاسلامية أنها فى كل أحكامها ومبادئها وتوجيهاتها ذات صبغة انسانية عالمية ، فهى رحمة للعالمين ، وهداية للناس أجمعين ، فلاعنصرية فى هذا التشريع ولاعصبية ولاطبقية ، وإنما الناس فيه سواء ..

---

(١) د. يوسف القرضاوى: شريعة الاسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان، ص ١٨.

(٢) المائدة: ٥٠

العدل المطلق :

ومن مزايا التشريع الاسلامى أن هدفه إقامة العدل المطلق بين الناس جميعا ، وتحقيق الإخاء بينهم ، وصيانة دمائهم وأعراضهم وعقولهم كما صان دينهم وأخلاقهم .

ومراعاة هذه الاعتبارات لها مستحيل أن يتحقق فى تشريع بشرى ، فإن مراعاتها جميعا تحتاج إلى علم إله ، وحكمة إله ، ورحمة إله . فالانسان دائما ينظر من زاوية ، ويغفل زوايا كثيرة . أما الذى ينظر النظرة المحيطة بكل شىء وكل جانب ، فهو الخلاق العليم ، الذى وسع كل شىء رحمة وعلما .

الموازنة بين الفرد والجماعة :

ومن مزايا التشريع الاسلامى : موازنته بين مصلحة الفرد ومصالح الجماعة دون جور على أحد منهما .

ولعل من أوضح الأمثلة على وجود التوازن فى الشريعة هو موقفها من الملكية ، فقد أباحت للأفراد أن يتملكوا ، لأن فى ذلك إشباعا لدافع فطرى أصيل ، كما أن التملك من دلائل الحرية والسيادة والقدرة ، فالحر هو الذى يملك وينفق مما يملك سرا وجهرا ، والعبد المملوك لايقدر على شىء — لأنه لايملك شيئا — كما أشار القرآن فى قوله تعالى :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ﴾[1]

ولكن الشريعة تقيد حق الملكية الفردية بقيود كثيرة لمصلحة المجتمع ، فهى ليست كالملكية فى النظام الرأسمالى التى تكاد تكون مطلقة من كل قيد . بل تضع الشريعة قيودا على طرق التملك ، وقيودا على طرق تنمية الملك ، وقيودا على

---

(١) النحل: ٧٥

التوزيع ، وقيودا على الانفاق والاستهلاك ، وقيودا على كل العمليات الاقتصادية التى تتبادل بوساطتها الأموال والمنافع . وبعض هذه القيود أخلاقية يقوم عليها الايمان ، وبعضها الآخر قانونى تقوم عليه السلطة . والهدف من ذلك هو إقامة القسط بين الناس ، وإشاعة التكافل والتراحم بينهم ، حتى لايمتص الأقوياء الضعفاء بوسائل الاحتكار والربا ومايتبعهما ، ولايكون المال دولة بين الأغنياء .

وفلسفة الشريعة هنا أن الفرد وأن كسب المال وتملكه : ليس هو المالك الحقيقى له ، إنما المالك هو الله . والانسان مستخلف فيه وأمين عليه فهو وديعة عنده .. فتصرفه فيه تصرف الوكيل المقيد بمشيئة الموكل وأوامره وتوجيهاته . وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [1]

الجمع بين الثبات والمرونة :

ومن مزايا التشريع الاسلامى : أنه يجمع بين الثبات والمرونة فالثبات فى الأصول والأهداف ، والمرونة فى الفروع والوسائل .

فهو بمرونته يستطيع أن يتكيف ويواجه التطور ، ويلائم كل وضع جديد ، وهو بثبات أصوله وأهدافه يستعصى على الذوبان والميوعة والخضوع لكل تغيير خطأ أو صواب .

إن مهمة هذا التشريع أن يصوب الخطأ ، وأن يقوم العوج ، لا أن يخضع له ، ويبرر قيامه ، ويصحح وجوده باسم « التطور » .

إن هذا التشريع لم يضعه المجتمع حتى يخضع له ، وينحنى لظروفه وأوضاعه ، ولكنه وضع للمجتمع ليرقى به ، ويخضع ظروفه وأوضاعه لهدايته وتوجيهه . فكلمة هذا التشريع هى العليا : لأنها كلمة الله .

---

(١) الحديد: ٧

هذه هى بعض مزايا التشريع الاسلامى . والشريعة الاسلامية ... شريعة تؤكد الشمول .. شمول زمانى .. وشمول مكانى يمتد إلى العالمين .. وشمول موضوعى يمتد الى كل نواحى الحياة ..
وشمول شخصى .. يمتد لكل من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهى بعد ذلك شريعة العدل :

من مصدرهـــا : العدل
وبتشريعهـــا : العـدل
وبتنفيذهـــا : العـــدل

تحرم الظلم وتحاربه .. ابتداء من العدوان على حدود الله .. وانتهاء إلى العدوان على حقوق الأفراد .. ومقاومة الظلم ليست مجرد حق .. بل هى واجب وفرض .. أمر لم يبلغه بعد أى نظام على وجه الأرض .

كذلك فهى تحقق التوازن .
تحققه داخل النفس ..
وتحققه داخل النظام ..

فى وقت يتمزق فيه الناس ، وتتمزق فيه الأنظمة .. بين جذب إلى أقصى اليمين ، أو جذب إلى أقصى اليسار .. حيث الإفراط أو التفريط حيث الإفراط أو التقتير .. حيث الغلو أو التسيب بعيدا عن الوسط العدل .. الوسط الأمثل ، وانحراف عن الصراط المستقيم .

وهى بذلك ومع ذلك حانية هادفة .
تحمل الرحمة ، وتحقق اليسر دون أن يحكم الهوى أو يتحكم .

وفى النهاية تحمل الفعالية ، وتحقق الإيجابية .
بماتشرع من جزاء .. بوجهيه ثوابا وعقابا ..

تلك هى المشروعية الاسلامية .. وهى عليا .. لأنها لابد أن تكون حاكمة ، ولأنها لاتقبل شريعة معها أو شريعة فوقها .

ولقد كلف الله الانسان بهذه العقائد واتباع شرائعه ونظمه ولتحقيق منهجه فى الأرض ، وجعل له مرتبة السيادة فى الكون والخلافة فى الأرض ، يعمرّها وينميها ، ويعمل على إظهار رحمته ونعمته على عباده ، وجاء النص القرآنى الصحيح بأن الله كرّم الانسان وفضله على كثير ممن خلق ، خصه بعقل به كلفه ، وبه أرسل إليه الرسل ، وقد عرض له فى القرآن صحائف الكون فى أرضه وسمائه ، مائه وهوائه ، جماده ونباته وحيوانه ، وحثه على النظر والتفكير فيماخلق ، وتعرف أسراره فيه فيتخذ منها مايقوى إيمانه كما يتخذ منها وسائل رقيه فى الحياة المادية ، التى تكون برقيها عزته وسعادته وبذلك جمع له بين خطى الجسم والروح ، وجعل حياته الكاملة فى استيفائه متعة المعرفة واليقين ، ومتعة المادة والعمل :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [1]

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [2]

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [3]

والإسلام يقرر أن الله خلق الانسان مستعدا لأن يسعد نفسه بالخير أو يشقيها بالشر ، والانسان بذلك كان صالحا بعقله وعمله ومسلكه فى الحياة لدرجات القرب من الله ، ولدرجات البعد عنه وماكانت هداية الوحى إلا تقوية لجانب الخير فيه وللأخذ بيده من نزعات الطغيان والهوى إلى ماقدر له من كمال فى دنياه وأخراه .

---

(١) البقرة: ٢٩ (٢) لقمان: ٢٠ (٣) الجاثية: ١١، ١٢

والاسلام حينما يضع الانسان فى تلك المنزلة لاينظر إلى ما بين أفراده من فوارق شخصية من ذكورة وأنوثة ، وسواد وبياض ، فالذكر والأنثى ، والأسود والأبيض فى الوضع الاسلامى بالنسبة إلى الخالق ، وبالنسبة إلى الكون سواء ، فالكل عباد مطالبون بالعقيدة ، وماأنزل الله من شرع ، وأكرمهم عند الله أتقاهم وأسعدهم فى الدنيا العاملون المخلصون المؤمنون :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

هذا هو وضع الانسان فى نظر الاسلام ، وهو وضع يدل دلالة واضحة على أن الاسلام يرى أن الانسان ذو حرية واختيار فى حياته ، فهو يفعل الخير مختارا فيثاب ، ويفعل الشر مختارا فيعاقب ، وبتلك الحرية ، وهذا الاختيار كلفه الله وأرسل إليه الرسل لتهديه وترشده . ولذلك جعله خليفته فى أرضه ، وكلفه بدينه وشرائعه ، وأعد له الثواب والعقاب . فلقد خلقه مختارا فى أفعاله ، وبذلك يكون جزاؤه فى يوم الدين تبعا لمايختاره لنفسه فى الحياة ، يكون صورة من اللذة والألم ، مساوية لماحملت نفسه من بواعث الخير والشر :

﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢)

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (٣)

والقرآن مليء بمثل هذه النصوص الدالة على أن الانسان مختار فى فعله وليس مقهورا ولامجبورا على خير أو شر .

وبعد فإن التصور الاسلامى يقوم على أساس أن هناك حالتين اثنتين للحياة

(١) النحل: ٩٧
(٢) سبأ: ٣٣
(٣) الشمس: ٧ ــ ١٠

البشرية . ولاعلاقة — للزمان أو المكان فى تقدير قيمة هاتين الحالتين إنما القيمة لذات كل حالة . ولوزنها فى ميزان الله الثابت الذى يتأثر بالزمان والمكان .

حالتان اثنتان تتعاوران الحياة البشرية على مدى الزمان واختلاف المكان :

حالة الهدى والضلال (مهما تنوعت ألوان الضلال) — حالة الحق وحالة الباطل (مهما تنوعت ألوان الباطل) — حالة النور وحالة الظلام (مهما تنوعت ألوان الظلام) — حالة الشريعة وحالة الهوى (مهما تنوعت ألوان الهوى)— حالة الاسلام وحالة الكفر (مهما تنوعت ألوان الكفر) — وإما أن يلتزم الناس الاسلام دينا (أى منهجا للحياة ونظاما) وإلا فهو الكفر والجاهلية والهوى والظلام والباطل والضلال .

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩)

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾
(آل عمران: ٨٥)

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ (يونس: ٣٢)

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الجاثية: ١٨)

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(الأنعام: ١٥٣)

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ ﴾

(البقرة: ٢٥٧)

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

(المائدة: ٤٤)

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(المائدة: ٥٠)

﴿ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ﴾

(النساء: ٥٩)

وإذا تأملنا فى هذه الآيات السالفة الذكر .. نجد ونتبين أنها تحدد المنهج الذى يرضاه الله ويعتبره هو الدين ، والدين هو المنهج الذى تسير عليه جماعة من الناس . فإذا كانت حياتهم تسير على منهج الله فهم فى دين الله . وإن كانت حياتهم تسير على منهج من صنع غير الله فهم على غير دين الله .

أن الله عز وجل لايقبل من أحد دينا — أى منهج حياة — إلا الاسلام . فمن ابتغى غير منهج الله ، وغير نظام الله نظاما ، وغير شريعة الله شريعة فلن يقبل منه هذا الدين . ولن يكون له مجال فى دين الله .

ومن لم يحكم بماأنزل الله كافر . ومن لم يرضى حكم الله لم يدخل فى الايمان . لأن حكم الله هو دينه ، وهو منهجه الذى ارتضاه للحياة . وهو « الاسلام » الذى لا يقبل الله من الناس « دينا » سواه .

إن هذه الآيات البينات تتضمن الأصول الثابتة الكفيلة بإبقاء الحياة البشرية دائما فى إطار المنهج الإلهى وحول محوره ، كما تتضمن وسيلة هذا المنهج الذاتية لمواجهة نمو الحياة وتجددها ، وبروز الحاجات الجديدة المتجددة أبدا :

﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

أى فردوه إلى أصول التصور الاسلامى الذى جاءكم من عند الله ، وإلى أصول الشريعة الإلهية التى جاءكم بها رسول الله .

لا إلى أى أصل آخر . ولا إلى أى تصور آخر . ولا إلى أى ميزان آخر .. فرد أى شأن من شئون الحياة الانسانية إلى غير الله والرسول هو إقامة إله آخر ، له حق الحاكمية ، وله حق تعبير الناس لمايشرعه لهم فى أمور الحياة المتجددة بغير إذن الله :

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاؤُا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾

(الشورى: ٢١)

والاسلام — وحده يرد أمر التشريع والحاكمية لله وحده — هو الذى يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .

إن الناس فى جميع الأنظمة التى يتولى التشريع والحاكمية فيها البشر . فى صورة من الصور — يقعون فى عبودية العباد — وفى الاسلام — وحده — يتحررون من هذه العبودية للعباد بعبوديتهم لله وحده .

وهذا هو تحرير الانسان فى حقيقته الكبيرة .. وهذا — من ثم — هو ميلاد الانسان .. فقبل ذلك لايكون للانسان وجوده الانسانى الكامل . بمعناه الكبير الوحيد ..

إن قيمة هذا التحرر يتمثل فى إقامة الحياة على منهج سليم قويم ، يستقيم به

أمر الحياة البشرية ، وتنجو به من الفساد والتخبط ، ومن الظلم أو الاستذلال ونذرك فيه قول عمر — رضى الله عنه :

(ينقص الاسلام عروة .. عروة من نشأ فى الاسلام ولم يعرف الجاهلية) ..

فالذى يعرف الجاهلية هو الذى يدرك قيمة الاسلام ، ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه ، ونعمة الله المتحققة به .

إن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها ، وبساطة الحقيقة الكبيرة التى تمثلها .. إن هذا كله لايتجلى للقلب والعقل ، كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية — السابقة للاسلام واللاحقة — عندئذ تبدو هذه العقيدة رحمة .. رحمة حقيقية .. رحمة للقلب والعقل .. ورحمة بالحياة والأحياء . رحمة بمافيها من جمال وبساطة ، ووضوح وتناسق ، وقرب وأنس ، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق :

وصدق الله العظيم :

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1]

فالاسلام هو دين الله الخالد ، الذى شرعه سبحانه على لسان رسوله الصادق ﷺ من عبادات ومعاملات ، والذى ارتضاه لعباده ، ولن يقبل عند الله دينا آخر . ومن رضى بالاسلام دينا ، فقد رضى بمايرضى به الله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يقول سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾[2]

(١) الملك: ٢٢

(٢) النساء: ١٢٥

ويقول تعالى :

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾[1]

وإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى : لايتأتى إلا بالإذعان الكامل لأوامر الله تعالى ، والتسليم المطلق ، والخضوع الكلى لأحكامه ، حتى يصفو القلب وتخشع الجوارح ، وتصدق النية ، وتصح العقيدة ، وتسلم الأفكار من الظنون السيئة .

فالاسلام هو دين الله الذى اصطفاه لنفسه وارتضاه لعباده وهو طريق الهداية الذى يوصل الانسانية إلى السعادة التامة ، والذى حقق لها الفضيلة الكاملة فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

والقرآن الكريم بين فضيلة الدعوة الاسلامية الخالدة بيانا واضحا ، فى صراحة فيقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[2]

يقول سيدنا على ، رضى الله عنه وكرم الله وجهه .

الحمد لله الذى شرع الاسلام فسهل شرائعه لم ورده ، وأعز أركانه عن غالبه ، فجعله أمنا لمن عقله ، وسلما لمن دخله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خاصم به ، ونورا لمن استضاء به ، وفهما لمن عقل ، ولبا لمن تدبر ، وآية لمن توسم ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق ، وثقة لمن توكل ، وراحة لمن فوض ، وجنة لمن صبر .

ولاعجب إن كان الاسلام كذلك : لماانطوت صحائفه البيضاء من معانى

---

(١) لقمان: ٢٢ (٢) فصلت: ٣٣

إنسانية راقية ، وما اشتملت عليه من فضائل اجتماعية عامة ، تأخذ بيد اتباعه المخلصين إلى مرتبة النعيم المقيم فى جنات الخلد والفوز العظيم .

خاصة وأنه تولى تنظيم الحياة الانسانية جميعها ، أفرادا وجماعات ، وتناول منذ قيادته بهذا التنظيم وطبيعة العلاقة بين الخلق والخالق ، والعباد ورب العباد .

كما تناول كذلك : طبيعة العلاقة بين :

الانسان والكون والحياة ، وطبيعة العلاقة الانسانية بين الفرد ، وبين الجماعة ، وبين الانسانية فى شتى مناحى الحياة .

ودين هذا شأنه ، كما علم بالضرورة ، خليق بالخضوع لأحكامه ، والإذعان لأوامره ، والاستجابة لاجتناب مانهى عنه ، حتى تسمو الانسانية عن بقية الحيوانات ، وتتحقق عندها الربوبية لخالق الأرض والسموات .

ولاشك أنه لن يتأتى لإنسان ما ، مهما عز وارتقى ، إلا الخضوع لأوامر هذا الدين الاسلامى ، والامتثال المطلق ، لماجاء به الرسول النبى الأمى الذى بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه سراجا منيرا ، وكان من فضل الله سبحانه ، كما أراد ، فبشر وأنذر ، ونصح وأرشد ، واستمر كذلك صلوات الله وسلامه عليه ، إلى أن انتشرت الرسالة . وعم عبيرها الخالد ، فسعدت به الأمم ، واستيقظت الهمم ، ورشدت القبائل ، وصحت العقائد ، وبلغت الهداية القلوب وآمن به المؤمنين ، وعلموا أنه الحق[1] .

إن الاسلام هو دين الله .. هو الدين الذى اصطفاه الله لنفسه ، وهو الدين الذى ارتضاه سبحانه لعباده .

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ﴾

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾

(١) الشيخ: موسى محمد على: الاسلام دين الانسانية، ص ٦٣، ٦٤

إن هاتين الآيتين واضحتين ويدعوان إلى أن الدين عند الله الاسلام ، ولا دين سواه ، ومن يتخذ دينا آخر غيره فقد خسر نفسه ودنياه وآخرته ..

مماسبق عرضه يتضح لنا مايلى :

أن الأرض والحياة كلها كانت فى ظلمات قبل ظهور الاسلام وعندما بزغت شمس الاسلام أضاءت الأرض كلها وأعادت الحياة لمن فيها ، والاسلام هو الدين الذى اختاره الله عز وجل والمنهج الذى ارتضاه لعباده ، وحقيقة الاسلام ونورها وكنزها تكمن فى التوحيد لله والاتجاه إليه وعبادته هو وحده لا إله إلا هو وهذا هو جوهر الاسلام والمنبت الحقيقى للحياة والأحياء والمفتاح لسعادة الانسان فى الدنيا والآخرة .

ويستمد المنهج الاسلامى أصوله من الشريعة الالهية التى ترسم للانسان الطريق الواجب الاتباع فى الدنيا والآخرة :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

(المائدة: ٤٨)

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الجاثية: ١٨)

إن الرسالات السماوية جميعها مع اختلاف أزمانها ، وتعدد أنبيائها ورسلها دعت إلى الاسلام وتوحيد الله وعبادته ، والإيمان بأنه الخالق على الحقيقة المعبود على الدوام ، المستغن عن الكل ، والكل مفتقر إليه .

إذن الفطرة هى الأصل الجامع ، وذروة التشريع الشامل ، ومقتضى العمل الصالح ، والأساس الذى يرجع إليه فى المسائل كلها . والمعنى الذى يوزن به صلاح الأمور من فسادها وبالفطرة تتفهم مناحى الدين ، ومايقصد إليه من حكمة الله البالغة .. وبالفطرة أيضا يهتدى الناس إلى استنباط الأحكام ومعرفة

القوانين الكلية التى تستخرج منها المسائل الجزئية ، والتفريعات التى تندرج تحت الموضوعات العامة .

إن اتباع أمر الله تحقيق للفطرة السليمة ، وهجر أمره تعالى بعد عن هذه الفطرة التى هى الأصل والتوبة إليه بعد اقتراف الإثم والذنب ، إنما هو الندم على الغفلة ونسيان الفطرة السليمة ورجوع عن الغواية والضلال .

الدين إذن فطرة فى الانسان ، والفطرة موافقة العقل للشرع ، فالدين هاد للعقل من الجموح والجمود والتهور والجبن والحمق والسلبية فى الأخلاق والعلم والسلوك[1] .

وإذا لم يكن هناك بين الخلق جميعا شيئا مشتركين مفطورين عليه ، فلن تظلهم قيم أو أخلاق ، ولن تصلح معهم عقيدة ، ولن يقنعهم مذهب أو رأى ، ولن يفيد معهم وعظ أو إرشاد ، ولن يتفقوا على أمر يجعلهم متوحدين فكريا ، ولن ترضى نفوسهم بقانون أو تشريع ، فالانسان إذا لم يوجه إلى مافطر عليه ، فإنه ينزع إلى لذاته ويتغافل عن الحق ويظلم ويتعدى حق الله[2] .

لقد خلق الله الناس شعوبا وقبائل متباينة العادات ، مختلفة الطبائع ، متعددة التقاليد ، متفرقة الأخلاق إلا أنه جعل فيهم فى الوقت نفسه فطرة جامعة هى التى تعين العاقل على اتباع مااستهدف الله من الدين ، فالفطرة حقيقة بديهية للمتأمل ، واضحة كل الوضوح لصاحب القلب السليم والنفس المستقيمة .

إن أهمية العمل بالشريعة الاسلامية وتنفيذ أحكامها إنما هو بمثابة الإمساك بعجلة القيادة فى طريق وعر المسالك أو فى بحر متلاطم الأمواج فى محاولة للسير فى الطريق الموصل للفلاح والأمن والهدى .

إن الاتجاه إلى معرفة أصول الدين الحنيف ، ينير للمتأمل الطريق الموصل لحكمة الله البالغة ، والاهتداء إلى سبيل الإيمان ، إذ به يشهد المؤمن بأحديته

(١) الشيخ عبد العزيز جاونيش: الاسلام دين الفطرة، ص ٤٠ — ٨٧

(٢) الدكتور / حسن الشرقاوى: نحو منهج علمى اسلامى، ص ٤٢، ٤٣

تعالى ، ويثبت قلبه بالقول الثابت ، ويوضح للعقول ماستغلق عليها فهمه وإدراكه .

إن أهم مايظفر به المتأمل فى التشريع الإسلامى أنه يستهدف الصلاح ، وأن غايته التيسير والرحمة والهدى ، وأنه بعيد عن التعقيد والغموض والظلم حتى ينصلح البناء النفسى والاجتماعى الانسانى وحتى لاتنتشر الفوضى بين الناس كيلا تفسد الأرض .

وعندما يدعو الاسلام إلى الصلاح والإصلاح ، إنما يدعو إلى الحق والعدل والخير والحكمة فى نفس الوقت وكلها مقتضيات الفطرة السليمة .

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الوجود كله وفطرة على الاسلام له والاهتداء إليه عز وجل ثم اختار دين الاسلام ليتخذه العباد منهجا لهم فى الحياة ونبراسا يضىء لهم الطريق ، وشرع عز وجل لهم من هذا الدين القويم شريعة حاكمة يسيرون على نهجها فيها الأمن والهدى والسلامة والقوامة والاستقامة .

وقد لايُتصور بعد أن يضع الله لنا دستورا لنسير على نهجه ، وطريقا لنستضىء بنوره وسبيلا لنسلك مسلكه ، ومنهجا لنتبعه ، وشريعة لنحكم بها حتى لانضل ونفقد الطريق فنضيع ونتوه فلانعرف من أين نبدأ وإلى أين نصل .. أن نترك كل هذا ونبحث عن قانون ومنهج يضعه بشر أيا كان هذا البشر .. ولو وقفنا لحظة مع أنفسنا ، وصدقنا الحديث مع قلوبنا لو تفكرنا قليلا فيمايدور حولنا لعرفنا أن هذا البشر عقله عاجز وفكره قاصر ومهما وصل إلى العلم والتقدم فهو فى النهاية عاجز عن إصدار منهج يصلح لكل البشر ، وينفع كل الفئات فهو مخلوق محتاج إلى الله .. مفتقر إلى عون الله ، وقدرة الله ، وعلم الله ، وإرادة الله ، وحكمة الله ، وفضل الله .. وأولا وأخيرا لا حول له ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

لقد منحنا الله عز وجل كنزا ثمينا ، وثروة غنية بكل مقومات الحضارة الراقية تجمع بين التقدم والرخاء والازدهار بعيدة عن الذل والاستعباد .. قريبة من درجات الوصل والقرب من الله عز وجل .

هذه الثروة الغنية تتمثل فى دين الاسلام الذى فطر الله الخلق جميعا عليه ، وشريعة الاسلام التى بينها لهم ولذلك أمر الله الانسان بأن يقم وجهه للدين القيم وأن يحافظ على شريعته التى شرعها له وطالبه بالحفاظ عليها واتباع أمره عز وجل فهى وديعته التى استخلفه عليها والأمانة التى حمله إياها ليستحق أن يكون خليفته فى الأرض .. فهى ثروة طائلة غنية بالعلم والإيمان ، العدل والاحسان ، الأمن والسلام ، الهدى والاستقرار فيها كل مايصبو إليه الانسان وينشده ويطمع فيه من الحياة الآمنة المطمئنة .

فالاسلام هو فطرة الله التى فطر الناس عليها .. وهو دين الفطرة الذى اصطفاه الله لعباده .. هو الشريعة الربانية الحاكمة العادلة الثابتة الكاملة الشاملة التى أقامها وشرعها سبحانه للوجود كله .

إن الاسلام هو فطرة الخلق وشريعة الوجود ..

ولقد خلق الله عز وجل كل شىء وهداه إلى فطرة الاسلام له سبحانه .. والتوحيد له جل جلاله .. والعبادة له هو وحده .. لا إله إلا هو ..

فالحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

الحمد لله الذى أتم نعمته علينا وهدانا إلى الاسلام
الحمد لله الذى منّ علينا بشريعة الاسلام
الحمد لله الذى أكمل لنا ديننا واختار لنا دين الاسلام

وصدق الله العظيم ·

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣)

الفصل الرابع

الاسلام وأثره فى استقرار الدولة

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾

فطر الله الخلـق على الاسـلام
وشرع الله للوجـود الاسـلام
ففطرة الخلق وشريعة الوجود الاسلام
والاسلام يقـود الى الايمـان
والايمان يحقـق للانسان الامـان
والامـان يهيىء للدولـة الاستقـرار
المتبعـة فطـرة الله
المحافظـة لشريعـة الله
فتصبح دولة القوة والبنيان.. دولة العدل والاحسان
مبعث الامن والسلام.. منبع الحب والامان.

ان استقرار الدولة هو غاية كل انسان، ومنشود كل فرد يريد ان يحقق الاستقرار لنفسه، والسلام لمن حوله.. فيتم التوازن فى المجتمع، ويسود الأمن فى البلاد.

ومما لا شك فيه ان للاسلام أثر شامل وعظيم فى تحقيق أمن الدولة.. فهو الدين الذى اصطفاه الله عز وجل وارتضاه لعباده حتى يتحقق لهم الأمن والسلام والرخاء والعزة والكرامة وكل ما يتمنونه من حياة طيبة سعيدة هادئة مطمئنة:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٣٢)

ولن يتحقق للدولة أمنها إلا بشريعة الله، ولن يتم استقرارها إلا بحكم الله، ولن يسود تقدمها وازدهارها إلا بمنهج الله:

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(المائدة: ٥٠)

وشريعة الله هى شريعة الاسلام.. فالاسلام منهج ربانى خالص، والتشريعات الاسلامية هى تشريعات ربانية صادرة من المشرع الواحد الأحد الله تبارك وتعالى لضبط الحياة الفردية والاسرية والاجتماعية والدولية.

والشريعة هى نظم واحكام شرعها الله، أو شرع أصولها وكلف المسلمين اياها ليأخذوا أنفسهم بها فى علاقتهم بالله، والناس، والحياة، والكون.

والشريعة الاسلامية هى الشريعة الكاملة المتكاملة.. الشريعة الشاملة التى استوعبت الحياة كلها، فلا يوجد جانب من جوانب الحياة إلا دخل فيها التشريع الاسلامى آمراً أو ناهياً أو مخيراً.

فالتشريع فى الاسلام تشريع شامل يشمل:

١ ــ الفرد فى تعبده وصلته بربه، وفى سلوكه العام والخاص.

٢ ــ أحوال الاسرة من زواج وطلاق ونفقات ورضاع وميراث، وولاية على النفس والمال ونحوها.

٣ ــ المجتمع فى علاقاته المدنية والتجارية، وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع من البيوع والايجارات والقروض والمداينات والرهن والحوالة والكفالة والضمان وغيرها.

٤ ــ الجرائم وعقوباتها المقدرة شرعاً كالحدود والقصاص.

٥ ــ واجب الحكام نحو المحكومين، وواجب المحكومين نحو الحكام وتنظيم الصلة بين الطرفين.

٦ ــ العلاقات الدولية فى السلم والحرب بين المسلمين وغيرهم.

هذه هى الشرائع المتمثلة فى النظم والاحكام ليتخذها المسلمون منهجاً لهم فى حياتهم، ونبراساً لهم يضيء الطريق فيتقربون الى الله.. آملين فى الفوز برضاه.. طامعين فى أن يشملهم برحمته وعفوه، وأن يدخلهم مع العباد الصالحين.

مما سبق يتضح لنا أن التشريع يأخذ جانبان هما:

أولا : جانب ايمانى: حيث ان هناك اموراً تعتبر قضايا ايمانية تترك للفرد حسب صلته بربه، وعلاقته به سبحانه وتعالى.

ثانياً : جانب تكليفى: حيث يتعلق بالاحكام والشرائع التى يجب ان تنفذ بقوة القانون، وهنا يأتى دور الدولة ومعاونتها لتنفيذ هذه الاحكام كما شرعها الله عز وجل.. وبذلك يسود الاستقرار والأمن فى المجتمع.

واللبنة الاساسية التى يقوم عليها التشريع الاسلامى هو اقامة العدل المطلق بين الناس جميعاً، وتحقيق الاخاء والمساواة بينهم، وصيانة أنفسهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم وحقوقهم.

وأهم ما يهدف اليه التشريع فى الاسلام ويحققه هو التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة دون جور على أحد منهما. ولن يتم هذا التوازن إلا باقامة العدل المطلق والمساواة الكاملة فيسود الاخاء والمودة بين الناس جميعاً.

فحين يسود الاسلام المجتمع حقاً، ويتعلم فيه كل جاهل ويعمل فيه كل عاطل، ويطعم فيه كل جائع، ويأمن فيه كل خائف، وينصف فيه كل مظلوم.. يتحقق التوازن المنشود فى المجتمع.

ان لعبادة الله العقيدة الاسلامية أثرها العظيم فى تكوين الأخلاق القويمة التى تغرس القيم والمبادىء والمثل العليا فى نفس الانسان مما ينشىء جيلا قوياً صالحاً قادراً على حمل الأمانة ومما يساعد على حماية التشريع الذى يحقق استقرار الدولة ورقيها، وللدولة دورها الكبير فى المحافظة على العقيدة الاسلامية بكل تعاليمها وأحكامها وآدابها مما يؤدى الى اطمئنان الفرد على حياته وشعوره بالأمان والسلام فيحيا المجتمع فى توازن وتناسق عادل متكامل.

ان التشريع الذى نسعى لتحقيقه وننشد تطبيقه هو التشريع الذى أنزله الله عز وجل فى كتابه الكريم.. تشريع دين الله الاسلام فى شموله وتوازنه.. اسلام القرآن والسنة اسلام لا يهدف الى شعارات زائفة تتخذ من العبارات الاسلامية ستاراً تخفى ورائه مصالحها الشخصية ومكاسبها الذاتية، والعبث بأمن الدولة واستقرار أفرادها.

اننا نريد تحقيق شريعة الله فى الأرض التى تحقق خير وأمن الانسان والمجتمع على السواء.

فالدين الاسلامى هو دين السماحة والخير والحب والسلام.. انه النعمة الشاملة، والعقيدة السامية، والشريعة الكاملة التى تحث على الخلق الكريم، والعلم القويم، والبناء السليم.

ودولة الاسلام هى دولة العلم والايمان، دولة العدل والاحسان، دولة الرقى والتقدم، دولة القوة والبنيان التى تعمل على تحقيق الخير والرخاء، والأمن والأمان، والصلاح والاصلاح، والحب والسلام.

ان الشريعة الاسلامية واضحة فى القرآن والسنة، ولا نحتاج إلا أن نتأمل فى آيات الله البينات، ونقتدى بسلوك رسول الله ﷺ والسلف الصالح.

ان للدولة والفرد هدف واحد هو تحيقيق الاستقرار والامان، ولن يتحقق أمن الفرد إلا باستقرار الدولة، ولن يتم استقرار الدولة الا بتنفيذ شريعة الله فى الارض والحفاظ على منهجه سبحانه تعالى فى الحياة، والعناية بتطبيق تعاليم الاسلام كما أمر بها تبارك وتعالى أنبيائه ورسله ليبلغوها للعالمين للاقتداء بها واتباعها.

وأمن الدولة لا يتعلق فقط بأفرادها المسلمون وانما شمل كل الناس.. المسلم وغير المسلم كما شمل ايضاً علاقة هذه الدولة الاسلامية بغيرها من الدول الاخرى الغير اسلامية.. علاقة تقوم على الحب والخير والسلام والأمن والاخاء والتعاون المتبادل فى جميع النواحى على أساس متكامل متناسق متوازن، وبذلك تساهم الدولة فى تحقيق الرخاء لبلادها وأفرادها وتحقق الأمن الذى يمثل كيانها وتقدمها وازدهارها.

ان حرص الدولة على اقامة العدل المطلق بين الناس جميعاً، وتحقيق المساواة بينهم وصيانة أموالهم واعراضهم وحقوقهم، والقصاص من القاتل، ومحاربة المعتدى، ومعاقبة السارق، والقضاء على المفسدين الذين يعبثون فى الارض فساداً.. هذا هو ما دعا اليه الاسلام وتحقيقه وتنفيذه فى الارض انما هو تحقيق لمبادىء وتعاليم وتشريعات الاسلام.

لقد كان للشريعة الاسلامية الأثر الفعال فى اسعاد المجتمعات التى التزمتها وعملت بموجبها، وتحقيق الخير لها فقد ساد فى ظل هذه الشريعة الحق والخير، وانتشر العدل والأمن، وشاع الاخاء والحب وعم الرخاء والازدهار.

فى ظل شريعة الاسلام نشأ «الانسان الصالح» الذى يعرف حق ربه عليه، فيعبده بالعلم النافع والعمل الصالح، ويعرف حق نفسه فيمتعها بالطيبات، ويزكيها بالصالحات، ويعرف حق مجتمعه عليه فيعطيه كما يأخذ منه ويوصيه كما يقبل الوصية منه بالحق والصبر، ويعاونه كما يستعين به على البر والتقوى.

حثت الشريعة الاسلامية الانسان الى ان عليه واجبات كما ان له حقوقاً، وان عليه ان يؤدى واجبه، كما له ان يطالب بحقه، وركزت على فكرة

الواجبات اكثر من تركيزها على فكرة الحقوق لأن حقوق الانسان إنما هى فى الواقع واجبات على غيره، ولن ترعى هذه الحقوق إذا كان الآخرون لا يهتمون بأداء الواجبات[1].

لهذا كان المجتمع الاسلامى مجتمع واجبات، وبعبارة أخرى مجتمع مكلفين كما يعبر الفقه الاسلامى. فكل العقلاء فى هذا المجتمع مكلفون أى مسئولون مطالبون، وليسوا مجرد سائلين مطالبين كما هى آفة العصر الحديث الذى يقول كل امرىء فيه: لى كذا وكذا، ولا يقول: علىّ كذا وكذا.

وأول واجبات الانسان انما هو واجبه نحو ربه، الذى خلقه ليعرفه ويعبده، ويعمر أرضه بالحق والخير، ومن هنا كان المجتمع الاسلامى مجتمع عبادة لله وعمارة للارض، تسير فيه العبادة والعمارة جنباً إلى جنب حتى ان النبى ـ ﷺ ـ أول ما أسس وانشأ فى مجتمع المدينة بعد الهجرة كان المسجد، وثانى ما انشأه كان السوق، هذه لدنياهم، وذاك لدينهم.

لم يشعر سلف هذه الأمة وخلفها ان هناك تعارضاً قط بين العمل لدنياهم والعمل لآخرتهم، بل كان شعارهم «اعمل لدنياك كأنك تعيش ابداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وكيف لا ، وقد علمهم القرآن هذا الدعاء الجامع:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(البقرة: ٢٠١)

ولا غرو ان ازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة فى بلاد الاسلام وعمرت الارض، وعم الرخاء، وكثرت الخيرات.

إن عظمة التشريع الاسلامى ان قواعده ثابتة وفى نفس الوقت مرنة بحيث تمتد لتشمل الناس جميعاً ابيضهم واسودهم، غنيهم وفقيرهم، اميرهم

---

(١) د. يوسف القرضاوى: شريعة الاسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان، ص ٤٥

وبسيطهم.. وهذا مما تعجز عنه كل التشريعات البشرية والقوانين الوضعية والنظم الانسانية.

كما ان التشريع الاسلامى ينظر الى مصلحة الفرد والجماعة ليس بنظرة وقتية، وانما نظرة دائمة تتجاوز مرحلة الدنيا الى الحياة الباقية. ومن هنا كانت لقواعده القدرة والصلاحية للنظرة الشمولية الجامعة، بحيث تهتم من جميع الجوانب بمصالح الانسان الحياتية والعملية والسلوكية والدنيوية منها والأخروية، وهذا لا يمكن ان يحققه أى تشريع بشرى أو عقيدة أخرى غير عقيدة الاسلام[1].

وهنا اسمح لى ايها القارىء ان نقف وقفة لأسجل تسجيلا يثبت ويبرهن على شهادة الواقع بخلود الشريعة الاسلامية وصلاحيتها وهى:[2]

١ ـــ ان النظريات والمبادىء القانونية التى يباهى بها العصر الحديث وتزهى بها فلسفات القانون وأنظمته قد سبقت بها الشريعة وارست قواعدها وقام على ذلك فقهها وتشريعها وقضاؤها. وحفل بذلك تاريخها.
وقد عرض المرحوم الاستاذ / عبد القادر عودة فى مقدمة الجزء الأول من كتابه القيم «التشريع الجنائى الاسلامى» طائفة من النظريات والمبادىء الشرعية التى لم تعرفها القوانين الوضعية إلا أخيراً، أو لم تعرفها بعد تتوافر فيها جميعاً كل المميزات الجوهرية التى تميز الشريعة عن القانون وهى:

الكمال، والسمو، والخلود أو الدوام.
قال «فالدليل اذن على توفر هذه المميزات هو الواقع الذى لا يكذب، وليس بعد منطق الواقع حاجة لدليل أو استدلال».

من هذه النظريات:

(١) الدكتور حسن الشرقاوى: المسلمون علماء وحكماء، ص ١٣٧

(٢) الدكتور يوسف القرضاوى: شريعة الاسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان، ص ٨٩

(أ) **نظرية المساواة:**

التى جاءت بها الشريعة من وقت نزولها. بنصوص صريحة تقررها وتفرضها فرضاً، وبصفة مطلقة بلا قيود ولا استثناءات، فلا امتياز لفرد على فرد، ولا لجماعة على جماعة، ولا لجنس على جنس، ولا للون على لون، ولا لحاكم على محكوم.

هذا على حين لم تعرف القوانين الوضعية هذه النظرية إلا فى أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر وهى مع هذا تطبقها تطبيقاً محدوداً بالنسبة للشريعة التى توسعت فى تطبيق النظرية الى أقصى حد.

ومن فروع هذه النظرية العامة «المساواة» أو من تطبيقاتها مساواة المرأة بالرجل فى التكاليف والحقوق العامة الا فيما تقتضيه فطرة كل منهما ووظيفته فى الحياة واعباؤه فيها، وهذا سر تفضيل الرجل فى الميراث وفى رياسة الاسرة التى يشير اليها قوله تعالى:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾
(البقرة: ٢٢٨)

فالسلطة التى اعطيت للرجل هنا انما كانت مقابل ما حمل من مسئولية ليتمكن من القيام بواجباته على خير وجه.

(ب) **نظرية الحرية:** التى قررتها الشريعة فى أروع صورها فقررت حرية التفكير، وحرية الاعتقاد، وحرية القول.

(جـ) **نظرية الشورى:** التى نزل بها القرآن الكريم منذ عهده المكى:

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

(الشورى: ٣٨)

وأيدها فى المدينة بقوله:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩)

وقد سبقت الشريعة القوانين الوضعية فى تقرير مبدأ الشورى بأحد عشر قرناً، حيث لم تأخذ القوانين به الا بعد الثورة الفرنسية، ما عدا القانون الانجليزى فقد عرف مبدأ الشورى فى القرن السابع عشر، وقانون الولايات المتحدة الذى اقر المبدأ بعد منتصف القرن الثامن عشر.

(د) **ومن ذلك ايضاً جملة نظريات فى الاثبات والتعاقد**: مثل نظرية الدين والكتابة، صغيراً كان الدين أو كبيراً باستثناء الدين التجارى وكذلك حالة الضرورة كالسفر وعدم وجود كاتب، ومثل نظرية حق الملتزم فى املاء العقد لأنه أضعف الطرفين المتعاقدين، ومثل نظرية تحريم الامتناع عن تحمل الشهادات أو عن ادائها. وهذه النظريات كلها بعض ما اشتملت عليه الآية الكريمة المعروفة بآية المداينة من احكام وتوجيهات وهى قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ ﴾ (البقرة: ٢٨٢)

(هـ) **ومن المبادىء أو النظريات التى زعموا انها من نتاج العصر الحديث وحده ما يسمونه «مبادىء العدالة الضريبية»** وهى بالذات القواعد الأربع التى ينسبون اكتشافها الى آدم سميث والتى أصبحت تعتبر فيما بعد «دستور العدل الضريبى» وهذه القواعد هى:
اليقين، الملاءمة، والاقتصاد، والعدالة.

وفى الحقيقة ان د. يوسف القرضاوى قد بين فى كتابه «فقه الزكاة» ان الاسلام قد سبق فلاسفة المالية والاقتصاد والمحدثين باثنى عشر قرناً، وعرف هذه القواعد وطبقها بحذافيرها تطبيقاً سليماً عادلا.

ومن التفريع على ما ذكرناه هنا: ان كثيراً من الاحكام والنظريات التى جاءت بها هذه الشريعة من اربعة عشر قرناً، وكانت فى وقت ما موضع ارتياب أو اتهام من خصوم الشريعة لم تجد البشرية بداً من اللجوء اليها، تحقيقاً للعدل ورفعاً للضرر والظلم عن الافراد والمجتمعات.

٢ ــ ومما سجله الواقع للشريعة الاسلامية كذلك: وما شهد به كبار المتخصصين من رجال القانون الذى اتيح لهم الاطلاع على بعض كنوز هذه الشريعة وفقهها الغنى الفسيح:

(أ) يقول العلامة القانونى الكبير الاستاذ / عبد الرازق السنهورى فى مقال له منشور فى مجلة القضاء العراقية (فى العدد الأول من السنة الثانية مارس ١٩٣٦) فى صدر بحثه عن صلاح الشريعة الاسلامية للخلود فى ميدان التطبيق المدنى:

(لا أريد الاقتصار على شهادة الفقهاء المنصفين من علماء الغرب كالفقيه الألمانى كوهلر، والاستاذ الايطالى دليفشيو، والعميد الامريكى ويكمور وكثيرين غيرهم ممن يشهدون بما انطوت عليه الشريعة الاسلامية من مرونة وقابلية للتطور ويضعونها الى جانب القانون الرومانى والقانون الانجليزى احد الشرائع الاساسية الثلاث التى سادت ولا تزال تسود العالم، وقد اشار الاستاذ لامبير الفقيه الفرنسى المعروف فى المؤتمر الدولى للقانون المقارن الذى انعقد فى مدينة لاهاى سنة ١٩٣٢ الى هذا التقدير الكبير للشريعة الاسلامية الذى بدأ يسود فقهاء اوروبا وامريكا فى العصر الحاضر.

(ولكنى ارجع للشريعة نفسها لأثبت صحة ما أقول:

ففى هذه الشريعة عناصر لو تولتها يد الصياغة فأحسنت صياغتها، لصنعت منها نظريات ومبادىء لا تقل فى الرقى والشمول وفى مسايرة التطور عن أخطر النظريات الفقهية التى نتلقاها اليوم عن الفقه الغربى الحديث.

(وانى آتى بأمثلة أربعة اضطررت الى الاقتصار عليها لضيق المقام، يدرك كل مضطلع على فقه الغرب أن من أحدث نظرياته فى القرن العشرين نظرية «التعسف فى استعمال الحق» ونظرية «الظروف الطارئة» ونظرية «تحمل التبعة» ومسئولية عدم التمييز).

(ولكل نظرية من هذه النظريات الاربع اساس فى الشريعة الاسلامية لا يحتاج الا الى الصياغة والبناء).

(ب) ويقول الاستاذ الدكتور على بدوى عميد كلية الحقوق بمصر سابقاً (مجلة القانون والاقتصاد، العدد الخامس من السنة الأولى) بعد مقارنة بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى وهو المصدر الأول لكل تشريع رومانى:

« ان القانون الرومانى يقوم على الشكلية التى تتطلب اجراءات رسمية وطقوساً معينة، هى المحور فى جميع نظمه، على حين ان الشريعة الاسلامية تقوم على التجرد من الشكليات والبساطة فى التعامل، ونية الفريقين فى التعاقد، وعلى روح العدالة الفطرية بين الناس.. ثم يقول:

« ... وكذلك فى ناحية القانون الجنائى يتبين لنا استقلال التشريع الجنائى فى الفقه الاسلامى، بل وتفوقه ايضاً على غيره من التشريعات القديمة والحديثة وذلك فى مواضع عدة منها:

— **نظام الحسبة**: وهى وظيفة اجتماعية فى العصر القديم تقابل وظيفة النيابة العمومية فى العصر الحديث.

— **نظام العقاب بالتعزيز**: وهو ان يترك تحديد العقوبة نوعاً ومقداراً

الى القاضى فيحكم بما يراه تبعاً لما يظهر له من ظروف كل جريمة، وحالة المجرم، ونفسيته ودرجة ميله الى الاجرام، وهو نظام يمتاز به الفقه الاسلامى وحده وينادى به كبار العلماء الجنائيين فى العصر الحديث حتى تكون العقوبة محققة للغاية من تشريعها، وبذلك يتحتم القول بأن الشريعة الاسلامية تشمل من مبادىء العقوبة ونظمها ما لا يقل فى سعة النطاق وتهذيب الفكرة عن أحدث المبادىء والنظم الوضعية، ومنها ما لم يكن له مثيل فى نظم العقوبة الرومانية.

(ج) ويقول الدكتور شفيق شحاته (النظرية العامة للالتزامات فى الشريعة الجزء الأول ص ٢٠١).

«وإذا اردنا المقارنة من حيث قيم النظم القانونية، وجدنا التشريع الاسلامى قد سبق التشريع الرومانى فى تقدير المبادىء العظيمة، ومنها مبدأ انتقال الملكية لمجرد الاتفاق ومبدأ سلطان الارادة ومبدأ النيابة التعاقدية..».

(د) ويقول الدكتور السنهورى وحشمت ابو ستيت فى كتابهما «اصول القانون» ص ١٣٢:

« ... لم تسلك الشريعة الاسلامية فى نموها الطريق الذى سلكه الفقه الرومانى، فإن هذا القانون بدأ عادات كما قدمنا ونما وازدهر عن طريق الدعوى والاجراءات الشكلية، اما الشريعة الاسلامية فقد بدأت كتاباً منزلا، ووحياً من عند الله، ونمت وازدهرت عن طريق القياس المنطقى والاحكام الموضوعية إلا أن فقهاء المسلمين امتازوا على فقهاء الرومان، بل امتازوا على فقهاء العالم باستخلاصهم أصولا ومبادىء عامة من نوع آخر هى أصول استنباط الاحكام من مصادرها، وهذا ما سموه بعلم اصول الفقه.

ولم يقتصر الامر على شهادات القانونيين من المسلمين، بل وجدنا من المتخصصين من مواطنينا المسيحيين الذين اطلعوا على جوانب من فقه الشريعة يشيدون بها كذلك وفقاً لما عرفوه من الحق، والحق أحق أن يتبع وقد نقلنا آنفاً

عن الدكتور شفيق شحاته المسيحى المصرى ما يؤيد ذلك.

٣ ــ هذه الشهادات المؤيدة للشريعة الاسلامية ليست من رجال الازهر وأساتذة الفقه فى الجامعات، وانما هى شهادات من كبار رجال القانون الوضعى الذين نهلوا من علمها وترعرعوا فى احضانها، وهى شهادات معللة تحمل فى عباراتها براهين صادقة.

واكثر من ذلك ان كثيراً من الراسخين فى علوم القانون والآداب فى الغرب حين اتيح لهم الاطلاع على بعض جوانب الشريعة الاسلامية لم يملكوا الا ان يعترفوا بفضلها وسبقها وتفوقها، قائلين كلمة الحق والانصاف ولا بأس ان نسوق هنا بعض شهادات هؤلاء وخصوصاً الذين لا يزالون يثقون بالفكرة اذا هبت ريحها من جهة الغرب:

(أ) يقول الدكتور «ايزكو انساباتو»:

«ان الشريعة الاسلامية تفوق فى كثير بحوثها الشرائع الأوروبية، بل هى التى تعطى للعالم ارسخ الشرائع ثباتاً».

(ب) ويقول الدكتور «هوكنيج» استاذ الفلسفة بجامعة هارفارد فى كتابة روح السياسة العالمية:

«ان سبيل تقدم الدول الاسلامية ليس فى اتخاذ الاساليب المفترضة التى تدعى ان الدين ليس له ان يقول شيئاً عن حياة الفرد اليومية، أو عن القانون والنظم السياسية وانما يجب ان يجد المرء فى الدين مصدراً للنمو والتقدم.

وقال: واحياناً يتساءل البعض عما اذا كان نظام الاسلام يستطيع توليد افكار جديدة واصدار أحكام مستقلة تتفق وما تتطلبه الحياة العصرية؟

والجواب على هذه المسألة هو ان فى نظام الاسلام كل استعداد داخلى للنمو واما من حيث قابليته للتطور فهو يفضل كثيراً عن النظم والشرائع المماثلة.

والصعوبة لا تنشأ من انعدام وسائل النمو والنهضة فى الشرع الاسلامى وانما فى انعدام الميل الى استخدامه.

ويقول: وانى اشعر اننى على حق حين اقرر ان الشريعة الاسلامية تحتوى بوفرة على المبادىء اللازمة للنهوض.

(جـ) ويقول الفيلسوف والاديب العالمى الساخر المعروف «برنارد شو»: «اننى دائماً احترم الدين الاسلامى غاية الاحترام لما فيه من القوة والحيوية فهو وحده الدين الذى يظهر لى انه يملك «القوة المحولة» ويتمشى مع مصلحة البشر فى كل زمان»[1].

(د) ويقول المؤرخ الانجليزى «ويلز» فى كتابه ملامح تاريخ الانسانية:

«ان أوروبا مدينة للاسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الادارية والتجارية».

٤ — ولم تقف الشهادة للشريعة الاسلامية بالصلاحية والخلود عند الافراد المنصفين فقط من الغربيين، بل تجاوزت هذا النطاق الى دائرة ارحب واشمل هى دائرة المؤتمرات الدولية الخاصة بالتشريع والقانون المقارن:

(أ) ففى مدينة لاهاى سنة ١٣٥٦هـ — ١٩٣٧م انعقد مؤتمر دولى للقانون المقارن دعى اليه الأزهر الشريف، فمثله فيه مندوبان من كبار العلماء حاضراً فيه عن:
«المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الاسلامية»
وعن «استقلال الفقه الاسلامى، ونفى كل صلة مزعومة بين الشريعة الاسلامية والقانون الرومانى».

---

(١) من مقال فى مجلة «دى مسلم رفيو» مارس ١٩٣٣ — نقلا عن الحديقة للسيد محب الدين خطيب جزء ١١ ص ١٩٨ — نقلا عن د. يوسف القرضاوى: الشريعة الاسلامية صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان، ص

وقد سجل المؤتمر على أثر ذلك قراره التاريخى الهام بالنسبة الى رجال التشريع الغربى وقد جاء فيه:

١ ــ اعتبار الشريعة الاسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام.
٢ ــ وانها حية قابلة للتطور.
٣ ــ وانها شرع قائم بذاته ليس مأخوذاً عن غيره.

(ب) وفى نفس المدينة ــ لاهاى ــ سنة ١٩٤٨م انعقد مؤتمر المحامين الدولى الذى اشتركت فيه ٥٣ دولة (ثلاث وخمسون دولة) من انحاء العالم، والذى ضم جمعاً غفيراً من الاساتذة والمحامين اللامعين من مختلف الأمم والأقطار.

اتخذ هذا المؤتمر ــ بناء على اقتراح من لجنة التشريع المقارن فيه، وعطفاً على ما كان قرره مؤتمر القانون المقارن السابق ذكره بشأن الشريعة الاسلامية ــ القرار التالى:

(نظراً لما فى التشريع الاسلامى من مرونة وما له من شأن هام، يجب على جمعية المحامين الدولية ان تتبنى الدراسة المقارنة لهذا التشريع وتشجع عليها)[1]

(جـ) وفى سنة ١٩٥٠ عقدت شعبة الحقوق الشرقية من المجمع الدولى للحقوق المقارنة مؤتمراً للبحث فى الفقه الاسلامى فى كلية الحقوق من جامعة باريس، تحت اسم (اسبوع الفقه الاسلامى) ودعت اليه عدداً كبيراً من اساتذة كليات الحقوق العربية وغير العربية وكليات الأزهر الشريف، ومن المحامين الفرنسيين والعرب وغيرهم من المستشرقين.

---

(١) المدخل الفقهى للاستاذ مصطفى الزرقا جزء ١ ص ٢٤٥، نقلا عن د. يوسف القرضاوى: شريعة الاسلام، ص ١٠٠

وقد خلص المؤتمر الى النقاط التالية:

١ — ان مبادىء الفقه الاسلامى لها قيمة حقوقية تشريعية لا يمارى فيها.

٢ — ان اختلاف المذاهب الفقهية فى هذه المجموعة الحقوقية العظمى ينطوى على ثروة من المفاهيم والمعلومات، ومن الأصول الحقوقية وهى مناط الاعجاب، وبها يتمكن الفقه الاسلامى ان يستجيب لجميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيق بين حاجاتها.

بناء على ما تقدم يعلنون رغبتهم فى ان يظل اسبوع الفقه الاسلامى يتابع اعماله سنة فسنة، ويكلفون مكتب المؤتمر وضع قائمة بالموضوعات التى اظهرت المناقشات ضرورة جعلها أساساً للبحث فى الدورة القادمة.

ويأمل المؤتمرون ان تؤلف لجنة لوضع معجم الفقه الاسلامى يسهل الرجوع الى مؤلفات هذا الفقه، فيكون موسوعة فقهية تعرض فيه المعلومات الحقوقية الاسلامية وفقاً للأساليب الحديثة.

واعتقد ان فى هذه الشهادات المبرهنة على صلاحية الشريعة الاسلامية وخلودها سواء من كبار العلماء أو المؤتمرات العالمية المتخصصة كفاية أى كفاية لمن كان له عقل حر.

فالشريعة الإلهية هى وحدها الصالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان، وأن المتتبع لها يشعر انه يسير فى الطريق الصحيح مهما وجد من عوائق ومتى لاق من محن وصعاب. وهى وحدها المرآة الصادقة التى يتلألأ فيها نور الحق فتأتى الحكمة، والحكمة تثمر الخير الذى ينبع من الايمان ويستمد من النبع الفياض هدية الله عز وجل الى العالمين «القرآن الكريم» الذى يرسم لنا الصورة المثلى النابضة الكاملة التى يجب أن يتحلى بها الانسان فيستحق أن يكون خليفة الله فى الأرض فيحقق الأمان لنفسه ولمن حوله، ويهيىء الاستقرار لدولته وبلاده.

ان المنهج الجدير بالاتباع هو منهج الاسلام الذى دلنا عليه وأرشدنا إليه فاطر

السموات والأرض، وبين لنا شرعته ومنهاجه الخالق لكل نفس، وأوصانا باتباعه الكامل القادر، وأخبرنا بصلاحه فى الفكر والسلوك والتطبيق العالم الخبير، وأظهر لنا الرحمن الرحيم ان منهجه يواكب الفطر المستقيمة والعقول الرشيدة والقلوب السليمة، وانه تعالى يضمن لمن يطبقه الأمن والسعادة فى الدنيا والآخرة متى كان عاملا به مخلصاً فى اتباعه.

وهذا المنهج بمثابة العروة الوثقى التى تربط بين أمة الاسلام مهما اختلفت اجناسهم ولغاتهم وزيهم وألوانهم وأشكالهم.. انه النور الذى يضىء قلب المسلم فيعرفه طريقه ويرسم له خطاه ويوضح له الحقائق.

ان منهج الله خالد فطرى شامل صادق يشتمل على كل ما يحتاج اليه الانسان فى مسيرة الحياة من اهداف وغايات.. لا يجعل النفس ضائعة، وانما يغذيها بما يصلح لها بلا افراط أو تفريط ويواكب حقيقة الانسان ويعمل على معاونته لبلوغ الكمالات الاخلاقية.

فالدين القيم يربط برباط محكم الانسان والعلم والدين، ويكمل بالقلب عمل العقل فى الانسان، ويجعل القلب والعقل والحس فى انسجام دائم دون ان يفسد طبيعة النفس من روح وجسم.

ودين الله وهو الاسلام الذى كان للبشرية، منذ كانت هناك رسالة الهية هو أصول ومبادىء توجيهه للطبيعة البشرية حسب خصائصها وامكانياتها وطاقاتها.

ورسالة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام هى كشف لتلك المبادىء والأصول التى خرجت عن صلاحيتها بسوء الفهم والتأويل أو بالانحراف بها فى التطبيق العملى.

والمسىء فى فهمها وتأويلها، والمنحرف فى تطبيقها هو «الانسان» الذى تلقاها وتداول الايمان بها جيلا بعد جيل الى رسالة رسول آخر، الى أن انتهى المطاف بالرسالة الى محمد ﷺ.

والانسان لا يسيء الفهم، ولا ينحرف فى التطبيق إلا اذا استهدف تحقيق غرض شخصى أو حرص على بقاء وضع خاص.[1]

ومن هنا كان الاسلام رسالة الى الانسان.. رسالة الله لتوجيه الانسان كطبيعة اعدها الله على خلق خاص وميزها على سواها ممن خلق.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2]

لقد كان الاسلام نظاماً لحياة الانسان الذى لا يستطيع ان يبلغ مبلغ الالوهية حتى لو كان رسولا مصطفى من ربه، ونظاماً لحياة الانسان الذى لا ينبغى ان ينحط عن طبيعته التى يتميز بها عن غيره. وهنا نرى الاسلام يدخل بتوجيهه فى نظافة الانسان، وغذائه وشرابه، فى ملبسه، وفى وسائل تسليته، وفى معاملته لغيره، وفى عبادته لربه.

وحياة الانسان اينما كان وفى أى مكان وجد هى تلك الحياة ذات الألوان العديدة.

وفى البداية والنهاية الاسلام هو رسالة الله للبشرية كافة:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3]

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[4]

---

(١) الدكتور محمد البهى: الاسلام فطرة الله، ص ١٢٦، ١٢٧

(٢) الاسراء: ٧٠ (٣) الجمعه: ٢ (٤) المائدة: ١٥، ١٦

فلقد كانت رسالة الاسلام تخطيطاً للطريق الذى يوصل الانسان الى ان يكون ذا ارادة، وذا قوة واستطاعة للمقاومة والمغالبة، وذا مشاركة اجتماعية.

كانت رسالة الاسلام لايقاظ الوعى بالذات، والوعى بالمجتمع معاً، إذ اضرار البشرية هى فى فقدان ارادة الأفراد، وانعدام المشاركة الاجتماعية بينهم.

الاسلام بتوجيهه عن طريق العبادة يسعى الى اقامة المجتمع الانسانى، والى نزع العدوان، والى تمكين الاطمئنان، ولهذا كانت نظرته الى الناس نظرة واحدة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ (1)

وبعد ما أيقظ الاسلام روح الجماعة فى الافراد عن طريق العبادة وأقام بذلك بينهم مجتمعه وهو المجتمع الاسلامى أحاط هذا المجتمع بسند قوى كى يبقى، وكى يستقر فى بقائه أحاطه بتأكيد النهى عن الاعتداء والعدوان:

﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ ﴾ (2)

وكى لا تصل النفس الى التفكير فى الاعتداء، فضلا عن مباشرته أمر بالعدل والاحسان، وبايتاء ذى القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، أمر بالعدل فى جميع صوره: فى الشهادة وفى الحكم والفصل. وأمر بالاحسان فى جميع صوره: بالمال، والصحة، والعلم، والجاه.

ونهى عن الظلم فى جميع صوره وهى كل ما يؤذى النفس والبدن والملك والحرمة الشخصية ونهى عن الفحشاء والمنكر فى جميع صورهما:
وهى كل ما لا ترضى عنه النفوس ويستقبحه العرف والوضع فى المجتمع.

---

(1) الحجرات: ١٣
(2) المائدة: ٢

وبهذا المجتمع الاسلامى مجتمع سلم، وعدل، واحسان: مجتمع يستقبح الفواحش والرذائل والعدوان. فهو مجتمع خلقى فاضل.(١)

ولكنه ليس بمجتمع استسلام ، ولا مجتمع طغيان . ليس مجتمع استسلام يقبل اللطمة ، فيسلم ولكنه مجتمع يدفع اللطمة باللطمة .

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢)

وليس مجتمع طغيان ، يغريه الانتصار على مجتمع آخر فينسيه مبادىء الانسانية فى معاملته .

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ (٣)

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (٤)

ولا يعتبر الاسلام رسالة إلى الانسان فقط بل هو أيضا علاجا لجميع أمراض المجتمع وألوان الضعف فيه ، ولذلك إذا تتبعنا أحداث قصة رسول الله محمد ﷺ لوجدنا أنه كان يعالج المجتمع ككل ..

يعالج فيه العقيدة .
ويعالج فيه الأخلاق .
ويعالج فيه التشريع .
ويعالج نظام المجتمع .
ويدفعه إلى العلم .
ومن أهداف رسالته أنه : يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم .

---

(١) الدكتور محمد البهى: الاسلام كنظام للحياة، ص ١٦

(٢) البقرة: ١٩٤ (٣) الممتحنة: ٨ (٤) المائدة: ٨

يقول الله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (1)

ويمتن الله على أن بعث فى العرب رسولا منهم :

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (2)

ويقول سبحانه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (3)

لقد أرسل الله عز وجل رسلا يدعون إلى التوحيد ويعالجون أمراضا معينة فى المجتمع إلا محمد صلوات الله وسلامه عليه كان يعالج المجتمع ككل ، ويسوقه إلى حضارة يتكامل فيها العلم والإيمان . حضارة علمية مؤسسة فى أسسها ، وفى سيرها ، وفى أهدافها على الإيمان .

ومن هنا كانت رسالته الخالدة ، وكان خاتم الرسل .

وانتفت الحاجة إذن إلى رسول جديد ، وكما يقال من قاديانيه ، ومن بهائية ، ومن زيف كثير بدأ بمسلميه ومدعى النبوة من العرب المزيفين كل هذا هراء لا قيمة له ، وقد أثبت الزمن ، ومازال يثبت أن النبوة ختمت بمحمد ﷺ .

وأخرج محمد ﷺ المجتمع القرآنى إلى واقع ، إنه واقع استمر ، وطبق محمد ﷺ المبادىء الإلهية القرآنية فى مجتمع فسدت فيه الفضيلة والقيم المثالية .

---

(1) الجمعة: ٢

(2) آل عمران: ١٦٤

(3) الأنبياء: ١٠٧

وليس هناك من عقبة حقيقية فى سبيل إخراج هذا المجتمع من جديد اللهم إلا النفوس والشهوات [1].

ولقد ضمن الله سبحانه وتعالى السعادة والنصر والفوز للمجتمع القرآنى المؤسس على الإيمان والعمل الصالح .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [2]

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [3]

فالاسلام هو وحى الله العليم بكل شىء ، وتعاليم الله الخالق لكل موجود .. إنه منحة الهبة .. منحة الله لعباده لايكفر بها إلا الجاحدون .

هذا هو الاسلام كنظام للحياة . هو نظام للحياة الانسانية الفاضلة المطمئنة المستقرة . هو نظام لحياة الفرد والمجتمع معا . أساسه النظرة إلى الانسان على أنه طبيعة تشتهى ولكن لها قيادة ، ويستجيب لدوافع الأنانية ولكن لها ميل إلى الاجتماع وقابلية نحو المشاركة الجماعية .

وتوجيه الاسلام يقوم على تنمية إرادة الفرد ليأخذ زمام الأمر بيده ، فلاينـدفع اندفاعا كما يندفع الحيوان والآلة .

ويقوم على تنمية الوعى بالمجتمع ، وعلى صيانة هذا المجتمع من الانحلال والتدهور والضعف ، حتى يكون مجتمعا قويا فاضلا .

---

(١) الامام عبد الحليم محمود، مع الأنبياء والرسل، ص ٣٩٥

(٢) النحل: ٩٧

الاسلام بعد ذلك ليس مسئولا عن ضعف المسلم وخضوعه لشهوته ، وليس مسئولا عن ضعف روابط المجتمع الاسلامى أو انحلاله ، وإنما المسئول عن ذلك سوء فهم الاسلام ، والانحراف فى تطبيقه . كتاب الله ليس مسئولا عمايستورد من الشرق والغرب من فكر فى التوجيه وإنما المسئول عن ذلك سوء فهم الاسلام والانحراف فى تطبيقه .[1]

وسوء فهم الاسلام والانحراف فى تطبيقه لايسئل عنه نفر من المسلمين ، إنما المسلم مادام قد ارتضى لنفسه أن ينتسب إلى الاسلام عليه أن يؤمن أولا بقلبه بالله فإذا آمن حقا بالله عرف الطريق الصحيح إليه :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [2]

إن الاسلام لايعرف طبقات فى مجتمعه . لايعرف مجتمعا يقوم على أرستقراطية المال والشرف ، كما لايعرف مجتمعا يقوم على خصيصة العمل البدنى وحده .

ولكن يعرف التفاضل بين أفراده على أساس من توجيهه

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [3]

ولذا لايقر أن تتحكم طبقة فى طبقة ، ولاطائفة فى طائفة لأنه لاوجود لطبقة أو طائفة فيه .

الاسلام يعتمد على الضمير فى الانسان . ولذا لايعرف الارهاب فى دفع الأفراد . الاسلام يعتمد على الخشية من الله . ولذا لايخشى طغيانا فيه من مجموعة على مجموعة .

---

(١) د. محمد البهى: الاسلام كنظام للحياة، ص ٢٠

(٢) البقره: ٢٨٢

(٣) الحجرات: ١٣

للمستورد من الغرب أو الشرق بريق ، ولكنه بريق خادع .

وإسلامنا هو الذهب الذى لاتتغير قيمته . ولكنا فى حاجة إلى أن نزيل عنه ما لابسه من سوء الفهم ، وانحراف التطبيق حتى يروج بين غيرنا بعد أن يسد حاجتنا ويغنينا عن التبعية لدخيل . يوم أن نكون كما وصف كتاب الله المؤمنين به :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (1)

نكون بالفعل أغنياء .

إننا بإسلامنا خير أمة أخرجت للناس ولينا الله ورسوله والذين آمنوا .

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ (2)

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (3)

---

(١) الحجرات: ١٥

(٢) المائدة: ٥٥، ٥٦

(٣) المجادلة: ٢٢

إذن الاسلام هو رسالة الله لكل فرد والطريق الإلهى لتحقيق الأمن والاستقرار للفرد والمجتمع على السواء .

إن الاسلام كرسالة اتجاهها فى الحياة هو اتجاه الحق والعدل وتكافل المجتمع ومحاربة الطغيان والاعتداء ليبقى السلام وحده هو الخط المستقيم للبشرية فى السلوك والتكافل ، وأن بزوال الطغيان والطغاة لاتكون هناك عبادة إلا لله وحده لا يشرك به ثم بعد استقرار السلام والعدل ليس هناك مجال لمنكر له ، أن المنكر له عندئذ يكون من الفاسقين العابثين .

ونجد ذلك واضحا أبلغ توضيح فى هذه الآية الكريمة :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (١)

مماسبق عرضه يتضح لنا أن الاسلام يحقق للانسان سلامه مع نفسه والآخرين ، كمايحقق للدولة أمنها فى علاقتها بأفرادها ، وعلاقتها مع غيرها من الدول الأخرى حيث يكون العدل بناءا ، والحق شريعة ، والخير حياة ، والأمن هدفا نسعى إليه ، والسلام أملا ننشد تحقيقه .. وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن للاسلام أثر عظيم وشامل فى تحقيق استقرار الدولة التى تسعى بدورها لتحقيق أمن الانسان واطمئنانه على أهله وماله وبيته وعرضه وكافة حقوقه .. وبذلك يسود المجتمع التوازن الشامل ، والتناسق العادل ، والأمن الكامل ، والسلام المتكامل .

فالاسلام كفطرة ربانية أودعها الله عز وجل فى جميع خلقه ، وكدين اصطفاه سبحانه وتعالى لجميع البشر ، وكمنهج ارتضاه جل جلاله لعباده ، وكشريعة

(١) النور : ٥٥

شرعها العليم القدير للوجود كله يحقق الأمان لكل إنسان ويكفل له الحياة الآمنة المطمئنة التى يتمناها ويسعد بها فى الدنيا . ويطمئنه على حياته فى الآخرة ممايهيىء للدولة الاستقرار الذى به تحقق الرخاء والتقدم والازدهار فى مختلف نواحى الحياة .

وليس هناك مجالا للشك فى أن الدولة التى تطبق منهج الله ، وتعمل على تنفيذ شريعته فى الأرض ، ويؤمن أفرادها بعدل الله وكمال علمه وحكمته وبره بخلقه .. فإن الله عز وجل يفيض عليها برحمته وعطائه فيفتح عليها بركات من السماء والأرض .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ ﴾

(الأعراف: ٩٦)

الخاتمـــة

الاسلام فطرة الخلق وشريعة الوجود

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾

الحمد لله الذى هدانا للاسلام وجعله لنا دينا قيما ، وجعل سبحانه التوحيد وجودا كاملا .. فمامن شيء إلا ويسبح بحمده ، ومامن شيء إلا ويقر بوجوده ووحدانيته تعالى فيملأ أرجاء الوجود كله بكلمة لا إله إلا الله وحده لاشريك له فتشع نورا على الوجود كله .. بدايته ونهايته .

لقد خلق الله الانسان ، وميزه بالعقل والإرادة ، وكرمه وفضله عن كثير ممن خلق تفضيلا ، وسخر له مافى الوجود لخدمته وذلك كله حتى لاينشغل بشيء ويتفرغ لعبادته هو وحده .

إن منح الله على الانسان كثيرة ، ونعمه عز وجل عليه كبيرة ، فلقد وهبه سبحانه وتعالى العقل ليميز به بين الحق والباطل .. ويفرق به بين الخبيث والطيب ، ومنح له القلب الذى يدرك به حقائق الأمور ، وأعطاه الجسد الذى به يتمتع بماأحله الله ويمتنع عماحرمه .

ثم اختار له الدين الذى يجب أن يتبعه وأودع فيه فطرة بأن يتجه إلى هذا الدين وألا ينحرف عنه ، ثم شرع له شريعة يسير على نهجها .

وقد أوجد الله فى الانسان القدرة على الاختيار بين طريق الهدى والضلال ، الخير والشر ، فأما أن يهتدى إلى الصراط المستقيم أو يضل الضلال المبين .

إذن نجد أن الله عز وجل سهل لنا الطريق ورسم لنا السبيل ووضع لكل شىء أصولا ومبادىء وقواعد لنسير عليها ونقتدى بهداها .

ولكن ماهى الحكمة الإلهية من ذلك كله ؟

الجواب : هو ألا ينشغل الانسان إلا بعبادة الله وحده ، والاتجاه إليه وحده ، فلقد خلقه الله عز وجل ليعبده هو وحده ، وسخر له كل شىء لييسر له سبل هذه العبادة فيعيش الانسان روعة الابداع الإلهى توحيدا ووجودا فيشهد بربوبيته هو وحده ، ولا يسبح إلا له هو وحده . وهذه هى الفطرة الربانية التى فطرها الله فى جميع خلقه ، فأمر بنى آدم الذين شهدوا بربوبية الله ووحدانيته بأن يقيموا وجوههم لدين الله ، وأن يتبعوا شريعته فى الوجود .

فليس هناك أفضل من الوفاء لأمر الله ، ولا أعظم من الاخلاص لدين الله ، ولاأجمل من اتباع شريعة الله ، وليس هناك أصدق من الله حديثا :

قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الجاثية : ٣ — ٦)

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

(النحل: ٨٩)

من المؤكد أنه إذا تتبعنا الأحداث التاريخية الاسلامية ، وتعمقنا فى الرسالات السماوية، وتأملنا فى آيات الله عز وجل وآلائه الكبرى ولمسات حنانه العظمى ف كل شىء أمامنا ومن حولنا صغيرا كان أم كبيرا يتبين لنا حقيقة هامة مؤكدة لامجال للشك فيها ، ولامكان للحيرة والضياع والارتياب فى أمرها وهى :

إن الاسلام هو دين الله المصطفى
وإنه الشريعة الحاكمة ، والعقيدة السامية
والحكمة الفاضلة ، والكلمة العادلة
إنه الفطرة الربانية ، والخلقة الإلهية
ولا تبديل لخلق الله

ونستطيع أن نستبين ذلك كله ممايلى :

١ ــ خلق الله عز وجل كل شىء فى الوجود وفطره على الاتجاه إليه والاهتداء والانسان كمخلوق من هذه المخلوقات مهتد بفطرته إلى الله .. متجه بطبيعته إليه تعالى ، وهذه الفطرة ، وهذه الطبيعة خلقها الله فى الانسان منذ ولادته فهذه هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها . فالفطرة هى فطرة الاسلام لله عز وجل .. فطرة الايمان بالله الواحد القهار .

واهتداء الانسان إلى فطرته ليس كسبا رخيصا بل هو فضل عميم وغنى عظيم فيه يعيش المرء فى سلام ووئام مع نفسه ، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله فى ظل التوحيد لله جل جلاله ، والتسبيح بحمده تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [1]

فى الانسان خلقة طبيعية .. فطرية فى الميل إلى العبادة فى الاتجاه نحو الله والايمان به والتمسك به .. هذه تركيبة الانسان التى خلقه الله عليها .

والوجود كله يعيش فى ظل هداية تكوينية فطرية تقودها إلى الله .. فالوجود كله بمافيه الانسان ممنوح منحة إلهية بالاتجاه إلى الله ، والإقرار بوجوده ووحدانيته ، والاعتراف بفضله العظيم .

٢ ـــ والانسان مخلوق خاص ، ذو كيان متميز ، وهو كائن كريم حباه الله ، مركزا عظيما فى تصميم الوجود ـــ على الرغم من كل مافى طبيعته من استعداد للمعرفة الصاعدة ، ولحمل أمانة الاهتداء يجعله كائنا فريدا ، يستحق تكريم الله له ، واختصاصه بمقام الخلافة فى الأرض عنه سبحانه ـــ وقبول توبته ، كما يستحق تلك العناية الإلهية به بإرسال رسله أو رسالاته .. وهو أكرم من كل ماهو مادى لأن كل ماهو مادى مخلوق له .

٣ ـــ وخلافة هذا الكائن فى الأرض مشروطة ومقيدة بعهد الله وميثاقه : أن يستقيم هذا الكائن على هداه ومنهجه وشريعته ، وأن يخلص العبودية له ، وألا يدعى شيئا من خصائص الألوهية ، وأن يجعل سعيه كله لله الذى استخلفه فى هذا الملك العريض ، وأن يحكم منهج الله فى ذاته وفى حياته .. وإلا تعرضت حياته كلها للفساد ، وتعرضت أعماله كلها للبطلان ، وتعرض لعذاب الله فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيها جميعا .

٤ ـــ وفطرة هذا الكائن تكمن فيها الحاجة إلى معرفة بارئها والالتجاء إليه وتوحيده ، والفطرة الانسانية مؤمنة ، والايمان حاجة فطرية كما أنه حاجة

---

(١) الاسراء: ٤٤

عقلية لايملك الانسان أن يستغنى عنها ، وهى مركزة فى كينونته وهو مفطور عليها وإلى هذه الحقيقة تشير الآية القرآنية :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ (١)

ونظرة الاسلام إلى الفطرة لاتحتاج إلى مجرد وجود إله ، بل أنها تحتاج كذلك إلى وحدانية هذا الإله . وتلجأ إلى هذه الوحدانية التجاءاً فطريا بدافع ذاتى فيها فى المواقف التى تهز كيانها وتنفض عنها الركام وتردها إلى الاستقامة سواء فى ذلك مواقف الشدة والحاجة ، أو مواقف التدبر لهذا الكون وموافقاته وعلامات الاستفهام الملحة على الفطرة فيه .

٥ ــ بين التصور الاسلامى وبين فطرة الكائن الانسانى روابط عميقة واستجابات كثيرة منها :

(أ) العبودية لله تلبى حاجة الفطرة البشرية إلى الله .

(ب) الغيب يلبى حاجة الفطرة البشرية إلى مجهول ، والمجهول يحيط بها حيثما اتجهت ، وفيها هى الاستجابة لمواجهة هذا المجهول .. وفيها الرغبة الفطرية فى الخروج من قيد الحس .

(جـ) الدار الآخرة تلبى حاجة الفطرة إلى العدل المطلق ، وإلى البقاء الطويل على السواء .

(د) الاعتراف بطهارة الطاقات البشرية فى ذاتها ، وإعطاؤها المجال الذى تتحرك فيه .

(هـ) حتى القيود التى يفرضها الاسلام هى قيود من الفطرة ذاتها . فهو حين يكف الطاقات الانسانية دون الاسراف ، يقيها العطب والتلف ــ يتناسق فى هذا مع الفطرة ويلبيها .

---

(١) الروم : ٣٠

٦ — فى صميم الفطرة أن يحس الانسان بالله على نحو من الأنحاء ويتجه إليه .. فيهتدى إلى الصراط المستقيم .. والمنهاج القويم .. وإلى الدين القيم .. دين الفطرة .. ودين الفطرة هو الاسلام . إن الدين عند الله الاسلام .. والاسلام هو دستور الله الكامل .. فهو منبع الحياة وشريعة الوجود .. وهو الفطرة والنعمة والهداية إلى الخلق أجمعين .

٧ — الاسلام هو الدين الواحد الذى اختاره الله لعباده وهو الدين الوحيد المقبول عند الله وإذا تأملنا فى كتاب الله « القرآن الكريم » وتعمقنا فى قصصس الأنبياء لوجدنا أن الاسلام هو الدين الذى شرعه الله منذ عهد آدم عليه السلام إلى عهد محمد عليه الصلاة والسلام ، وإن دعوة الأنبياء كلها واحدة .. ورسالة الرسل كلها واحدة وهى الدعوة إلى عبادة الله ورسالة التوحيد بالله الواحد القهار والإيمان بالله عز وجل خالق كل شىء ورب العرش العظيم ..

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (١)

٨ — إن الدين عند الله الاسلام ، والاسلام هو توحيده سبحانه . وليس لله دين سواه

وقد دل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم ، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢)

(١) النحل: ٣٦

(٢) آل عمران: ٨٥

قال أول الرسل نوح :

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (1)

وقال ابراهيم وإسماعيل :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ (2)

ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب :

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (3)

وقال يعقوب لبنيه عند الموت :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (4)

وقال موسى لقومه :

﴿ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (5)

وقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (6)

---

(1) يونس: ٧٢ (2) البقرة: ١٢٨ (3) البقرة: ١٣٢
(4) البقرة: ١٣٣ (5) يونس: ٨٤ (6) آل عمران: ٥٢

فالاسلام دين أهل السموات ، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض ، ولا يقبل الله من أحد دينا سواه .

٩ — للاسلام شعبتان أساسيتان ، لايتحقق بدونهما وهما : العقيدة والشريعة والعقيدة هى الأصل الذى تبنى عليه الشريعة ، ومن ثم فلا وجود للشريعة فى الإسلام إلا بوجود العقيدة ، كما لاازدهار للشريعة إلا فى ظل العقيدة .

والعقيدة هى : الجانب النظرى الذى يطلب الإيمان به أولا وقبل كل شىء ، والعقائد الأساسية التى طلب الاسلام الإيمان بها هى :

١ — الإيمان بوجود الله ووحدانيته .
٢ — الإيمان بالملائكة « سفراء الوحى بين الله ورسله » .
٣ — الإيمان بجميع الرسل .
٤ — الإيمان بالكتب السماوية « رسالات الله إلى خلقه » .
٥ — الإيمان باليوم الآخر .

وعنوان تحقق هذه العقائد هو الشهادة بأن الله واحد ، وأن محمد رسول الله .

أما الشريعة فهى : النظم التى شرعها الله أو شرع أصولها ، وكلف المسلمين إياها ليأخذوا أنفسهم بها فى علاقتهم بالله ، وعلاقتهم بالناس وأنها على كثرتها ترجع إلى ناحيتين رئيسيتين :

(أ) ناحية العمل الذى يتقرب به المسلمون إلى ربهم، وهذه الناحية هى المعروفة باسم العبادات.
(ب) ناحية العمل الذى يتخذه المسلمون سبيلا لحفظ مصالحهم ، ودفع مضارهم ، وهذه الناحية هى المعروفة باسم المعاملات .

١٠ — التشريع فى الاسلام تشريع شامل استوعب جوانب الحياة كلها فهو يشمل الفرد فى تعبده وصلته بربه ، وسلوكه الخاص والعام ، وعلاقاته

الانسانية ، ومايتعلق بأحوال الأسرة والميراث ، ومايتصل بالجرائم والعقوبات ، كمايشمل التشريع الاسلامى ماينظم العلاقات الدولية فى السلم والحرب .. إلخ .

١١ ــ وهنا سأقف وقفة فى حديثى عن العقيدة والشريعة وسأضع تشبيها للاسلام يقرب المعنى إلى الذهن وهذا التشبيه هو كالآتى :

أن الاسلام شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وسأطلق على هذه الشجرة « **شجرة الاسلام** » ومكونات هذه الشجرة كالتالى :

الأصل الثابت
منبت هذه الشجرة } **وحدانية الله**

ويندرج تحت هذا الأصل الثابت فرعان كبيران هما :

الفرع الأول

العقيـــدة

ومن الفرع الأول وهو العقيدة
تنبت فروع أخرى هى :

١ ــ الإيمان بالله
٢ ــ الإيمان بالملائكة
٣ ــ الإيمان بجميع الرسل
٤ ــ الإيمان بالكتب السماوية
٥ ــ الايمان باليوم الآخر

الفرع الثانى

الشريعـــة

ومن الفرع الثانى وهو الشريعة
تنبت فروع أخرى هى :

١ ــ **العبادات** وتشمل : الشهادة ، الصلاة ، الزكاة، الصوم ، حج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .
٢ ــ **المعاملات** وتشمل : الاسرة والميراث، الأموال والمبادلات، الجرائم والعقوبات، الاخلاق فى الاسلام، العلاقات الدولية..الخ

ونجد ذلك واضحاً فى الشكل التالى:



تستمد هذه الشجرة أكلها وهواؤها

وضوءها من فيض القرآن الكريم

الإيمان بالله

الإيمان بالملائكة

الإيمان بجميع الرسل

الإيمان بالكتب السماوية

الإيمان باليوم الآخر

العقيدة

الشهادة

إقام الصلاة

إيتاء الزكاة

صوم رمضان

حج البيت

العبادات

الأسرة والميراث

الأموال والمبادلات

الجرائم والعقوبات

الأخلاق في الإسلام

العلاقات الدولية

المعاملات

الشريعة

الإسلام

شجرة الإسلام

هذه هى الشجرة الاسلامية التى توضح الأصل الثابت لشريعة الاسلام وهو وحدانية الله ثم يتفرع من هذا الأصل الثابت الذى هو منبت الشجرة فرعان كبيران هما : العقيدة والشريعة ومن كل فرع من هذين الفرعين يتفرع فروع أخرى مرتبطة بالفرع الأساسى إلى الأصل الثابت والبذرة والمنبت الرئيسى لشجرة الاسلام .

وتستمد شجرة الاسلام أكلها وهواؤها وضوءها من فيض القرآن الكريم .

فإذا كان الاسلام شجرة منبتها الايمان بالله والتوحيد به وفروعها متمثلة فى العقيدة والشريعة فإن غذاؤها وماؤها وهواؤها وضياؤها هو كلمات الله المتمثلة فى كتابه العظيم القرآن الكريم .

أما ثمار هذه الشجرة فإنها ثمار باقية فى الدنيا والآخرة ، فمن يتمسك بهذه الشجرة ويجلس تحت ظلها ليرتوى من فيضها ويشرب من ماءها ويتغذى من غذائها، ويتنفس من هواءها، فإنه وبلا شك سيفوز بثمار هذه الشجرة ويؤتى أكلها كل حين بإذن الله فيفيض الله عليه بثواب كبير وفضل عظيم وخير وفير وثمرة له على عمله واتجاهه وسيره فى ظلال شجرة الاسلام ويكون فى الآخرة من الفائزين . أما من يبتعد عن هذه الشجرة ويهملها ويذهب إلى ملذاته وشهواته ليكون خاضعا لها وجالسا فى ظل هذه الشهوات فسيجنى ثمار ابتعاده وعبادته لهواه وبعده عن الطريق السليم وسيحرمه الله من ثمار شجرة الاسلام فى الدنيا وماله من قرار وهو فى الآخرة من الخاسرين .

١٢ — من هذا الشمول الواضح فى التشريع الاسلامى .. بدت خصائص الشريعة الاسلامية التى تتركز فى :

(أ) الربانية .

(ب) الانسانية العالمية .

(جـ) العدل المطلق .

(د) الموازنة بين الفرد والجماعة .

(هـ) الجمع بين الثبات والمرونة .

١٣ ــ الشريعة الإلهية هى وحدها الصالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان ، والمرآة الصادقة التى يتلألأ فيها نور الحق فتؤتى الحكمة ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .. الخير الذى ينبع من الإيمان المستمد من النبع الفياض القرآن الكريم الذى يحقق الأمن النفسى للانسان ويهيىء الاستقرار للبلاد والمجتمعات .

من هذا كله نستبين أن الاسلام هو رسالة الله للبشرية كافة :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (١)

والأمة الاسلامية خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتطبق شريعة الله فى الأرض .

إن فطرة الله هى الاسلام .. ودين الفطرة هو الاسلام والدخول فى دين الاسلام هو العهد باتباع وتحقيق شريعة الوجود وهى الاسلام .

فالاهتداء إلى الفطرة .. هو اهتداء إلى الاسلام .. إلى طريق الاسلام وإلى تنفيذ شريعة الاسلام .

وهذه الفطرة الإلهية فطرها الله عز وجل فى الناس جميعا ومنحها لجميع الموجودات فهى كامنة وموجودة فى جميع المخلوقات .

إن الحديث عن فطرة الاسلام يطول ويطول .. إنه ومضات نورانية لاتنطفىء ، وفيوضات ربانية لاتنتهى .

---

(١) الجمعة: ٢

إن الكلمات تسبقنى ، والسطور لاتمهلنى ، والصفحات لاتكفينى .

إن الحديث طويل وطويل ويحتاج إلى كتب ومجلدات .. ولكن حقيقة الاسلام واضحة وظاهرة فى كتب أخرى أمامنا .. هذه الكتب هى آيات مقروئة ومشهودة ومنطوقة أمام أعيننا وهى كالآتى :

— **حقيقة الاسلام جلية فى كتاب الله «القرآن الكريم»** .. مأدبة الله التى تسع الناس جميعا ، فيها النور والهدى ، والحكمة والموعظة الحسنة والمثل والعبرة ، والتوجيه والمشورة ، وأدب المعاملة وفضائل السلوك . إنه دستور الحياة الذى يوضح لنا الطريق الأمثل الذى يجب أن نسير فيه للقرب من الله عز وجل ، ويرسم لنا التشريع الأعلى الذى يجب اتباعه حتى نفوز بحب الله ورضاه .

ويبين لنا هذا الكتاب الإلهى اختيار الله للدين الاسلامى كنظام للحياة ومنهج لعباده فى الأرض ، وشريعة لابد من تحقيقها والتمسك بها حتى يسود الأمن والاستقرار ، ودعوة إلى العالمين بأن يبتغوا دين الاسلام ولادين سواه ، وألا يموتوا إلا وهم مسلمين :

قال تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

(الاسراء: ٩)

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

(النحل: ٨٩)

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ (آل عمران: ١٩)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

(البقرة: ١٢٢)

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

(المائدة: ٣)

ــ **حقيقة الاسلام ظاهرة فى كتاب «الكون»** الذى تعبر صفحاته عن آيات الله الدالة على قدرته العظيمة ومامن شيء فى هذا الكون الفسيح والملك العريض إلا ويتجه إلى الله ويسبح بحمده تعالى معترفا بوجوده مقرا بوحدانيته .. مؤمنا بقدرته العظيمة وإنه لا إله إلا هو وحده رب كل شيء .. ورب العرش العظيم .

قال تعالى :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾

(الغاشية: ١٧ ــ ٢١)

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

(الزمر: ٦٢)

﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾

(طه: ٥٠)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ

﴿ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾

(الطلاق: ١٢)

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾

(نوح: ١٥ ــ ٢٠)

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾

(ق: ٦ ــ ١١)

ــ **حقيقة الاسلام واضحة فى كتاب «الانسان»** الذى تعبر صفحاته عن خلق هذا الكائن فى أحسن تقويم وتكريمه بالخلافة على الأرض وتمييزه بالعقل والإرادة ومنح الاختيار له بين طريق الخير أو طريق الشر وحمله الأمانة وأن هذا كله لآية من الآيات الربانية الكبرى الدالة على قدرة الله العظيمة وفضله العميم .

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

(الإسراء: ٧٠)

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

(التين: ٤)

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(البقرة: ٣٠)

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(الذاريات: ٢٠ — ٢١)

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾

(البلد: ٨ — ١٠)

هذه الكتب الثلاث هى أعظم الكتب المشهودة والمنطوقة والمقروءة التى تدل وتعبر عن حقيقة الاسلام .. فما علينا إلا أن نتأمل كتاب الله وآياته البينات المتمثلة فى القرآن الكريم ، ونتدبر ونتفكر فى كتاب الكون ومافيه من ظواهر وشواهد حولنا من كل جانب تدل على قدرة الله العظيمة ووحدانية الله العلى الكبير الرحمن الرحيم ، ونتبصر فى كتاب الانسان الذى هو آية من الآيات الكبرى ولمسة من لمسات حنان الله العظمى حتى نعرف ونتأكد ونؤمن إيمانا قويا لاشك فيه بأن الاسلام فى جوهره هو فطرة الخلق وشريعة الوجود .

وأخيرا وليس هناك آخر فكل مافى الوجود من حولنا يهتدى إلى الله ويحيا فى

ظل حقيقة الاسلام إلى الله رب العالمين .. فالاسلام هو الفطرة وهو الشريعة وهو النعمة وهو الهداية وهو الحكمة وهو الحياة الطيبة الآمنة .

فلنحمد الله الذى خلقنا أحرارا ، وجعل لنا إرادة وعقلا نميز بهما بين الحق والباطل .. ونفرق بين الصواب والخطأ ..

والحمد لله الذى جعلنا مختارين مسلمين نسلم له هو وحده .. موحدين نوحد به هو وحده .. لا إله إلا هو وحده لا شريك له .

الحمد لله الذى فطرنا على الاسلام ، وشرع لنا الاسلام ، وارتضى لنا الاسلام .

الاسلام هو الطريق الذى نسير فيه ويقودنا إلى الإيمان ، والإيمان هو النور الذى يضىء حياتنا وينير طريقنا .. طريق الهداية .. طريق الفطرة.. الطريق إلى الله .

إن بدايتنا من الله .. ونهايتنا إلى الله .
ومابين البداية والنهاية هو طريق مايسعى إليه الانسان .
إما أن يكون طريقا من نور .. وإما أن يكون طريقا من ظلام ..
إما أن نكون أولياء لله .. وإما أن نكون أولياء للشيطان .

إن الله لم يخلقنا عبثا ولم يخلق هذا الوجود باطلا .

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٩١)

إذا كان الله القادر الحى القيوم لم يخلقنا عبثا .
فكيف نجعل الطريق مابين البداية والنهاية عبثا ولهوا .

إن الطريق أمامنا مفتوح ... وواسع ... وممنوح
بنعم إلهية .. وفيوضات ربانية .. وومضات نورانية

وهذا الطريق هو طريق الاسلام .. طريق الإيمان ..
طريق اللـــه .

فالحمد لله الذى فطرنا على الاسلام
وشرعه لنا دينا وعقيدة ، وأودع فينا عقلا وإرادة
نميز بهما طريق الحق متوكئين بفطرة الله إلى حيث
تكون شريعة هذا الوجود .

والحمد لله الذى أنعم علينا بنعمة الإيمان
والحمد لله الذى أرشدنا إلى الصراط المستقيم

قال تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٣)

وبعد .. اللهم نسأل أن تهدنا إلى صراطك المستقيم ، ودينك القويم .. دين الاسلام المضيء بنور الإيمان ، وأن تشملنا بلمسات حنانك الكبرى .. وفيوضات عطاؤك العظمى ... اللهم آمين .

المؤلفة فى سطـــور

ناهد عبد العال الخراشى

تخرجت من كلية الآداب ـــ قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية (شعبة الفلسفة) ـــ جامعة الاسكندرية عام ١٩٧٦.

دبلوم دراسات عليا فى علم النفس الاسلامى من جامعة الاسكندرية.

تهتم بالدراسات النفسية فى القرآن الكريم والسيرة النبوية، وقد أعدت مجموعة من الابحاث والدراسات فى هذا المجال كما نشرت لها عدة مقالات فى ذات الموضوع.

كتب للمؤلفة

أثر القرآن الكريم فى الأمن النفسى

كتب تحت الطبع

لمسات من الحنان الالهى.
النفس بين الفجور والتقوى.

المراجـــــع

القرآن الكريم

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

المنتخب فى تفسير القرآن الكريم

ابن كثير : تفسير القرآن الكريم

ابن القيم : مدارج السالكين

أحمد بهجت : الله فى العقيدة الاسلامية

أنبياء الله

جمال الدين الفندى : السموات السبع

زينب الغزالى : نحو بعث جديد

سيد قطب : فى ظلال القرآن

خصائص التصور الاسلامى ومقوماته

الامام عبد الحليم محمود : مع الأنبياء والرسل

الشيخ عبد العزيز جاويش الاسلام دين الفطرة والحرية

المستشار على جريشه أركان الشريعة الاسلامية حدودها وآثارها

الدكتور محمد البهى : الاسلام فطرة الله

الاسلام كنظام للحياة

محمد قطب دراسات فى النفس الانسانية

منهج التربية الاسلامية

محمود شلتوت الاسلام عقيدة وشريعة

موسى محمد على الاسلام دين الانسانية

يوسف القرضاوى وجود الله

الايمان والحياة

الخصائص العامة فى الاسلام

شريعة الاسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان

المحتويات

تم بحمد الله

رقم الايداع بدار الكتب
٣٦٤٧ / ١٩٨٨

مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر